من الشعر المنسوب

إلى الإمام الوصي علي بن أبي طالب عليه السلام

جمعه وشرحه

عبد العزيز سيد الأهل

www.haydarya.com

من الشعر المنسوب

إلى الإمام علي ، عليه السلام

من الشعر المنسوب

إلى الإمام الوصي علي بن أبي طالب عليه السلام

جمعه وشرحه

عبد العزيز سيد الأهل

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

الوصيّ الشاعر

وبعد ، فليس بأحد من حاجة إلى التوسعة في الكلام عن شاعرية علي بن أبي طالب الموروثة عن أبيه الذي اشتهر له شعر كثير ولا سيما في مؤازرة النبي والدين القويم الذي جاء به .

وليس كذلك بأحد من حاجة إلى تذكيره باهتمام الإمام برواية الشعر عامة وشعر أبيه خاصة ، وربما كان ماثلاً أمام القراء لسيرة النبي إنشاد علي (ع) بين يدي النبي وهو على منبره في المدينة قول أبي طالب يصف النبي ، صلى الله عليه وسلم :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

كما أنه ليس بأحد حاجة إلى أن يعرف من جديد احتمال إنشاد علي للشعر وصناعة قوله . وإذا كان ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد يقول إن أبا بكر وعمر وعلياً كانوا شعراء وعليّ أشعرهم فإنه لم يجاوز الحق بما عرف من خصائص لغة علي وثورته الطاغية في الألفاظ والأساليب ، وبما عرف من التناسب

بين الشعر وما عرف من خصائص الكلام .

نعم ليس بأحد من المثقفين من حاجة إلى هذه التوسعة التي تناولتها المعارف القديمة بشؤون الكلام ، ولذا فإننا ننتقل من هذه التقدمة القصيرة إلى عرض ما نسب إلى الوصي من مقطعات الشعر ، ونقدمها منسوبة إلى مراجعها من الكتب ، ونوجز في شرحها ما وسعنا الإيجاز من غير تقصير .

غير أنه لا بد من الإشارة إلى أنه ليس لعلي بن أبي طالب قصائد طوال ، وذلك لأن أمير المؤمنين في كل أطوار حياته لم يكن في خلوّ بال الشاعر الذي ينطلق ليهيم وراء الصنعة واصطياد المعاني واختيار القوافي ، وإنما كان أحد العاملين المتقنين لفنون الحياة ، فلا تعوزه الحاجة إلى فاقة عملية يصرف فقرُها ذوي البال الخالي إلى تخليق المعاني وتصنيع الأقوال .

ولقد كان إذن يصوغ الشعر كبقية الكلمات التي يصوغها مرتجلة سديدة حاسمة في الشؤون التي يقول فيها ، ولم يكن عنده أوسع من ميادين الجهاد وإرسال الحجة والقول في الدين والحكمة والأخلاق ، بل لم يكن عنده غير هذا الجد من ميادين .

وقد صان الإمام نفسه عن قول الهجاء أو صانه رسول الله، صلى الله عليه وسلم ، ولم يرد له أن يقول فيه فقد روى صاحب أسد الغابة أن قائلاً قال لعلي بن أبي طالب ، عليه السلام : أهج القوم الذين يهجوننا . فقال : إن أذن رسول الله فعلت . فقال رسول الله : إن عليّاً ليس عنده ما يراد من ذلك ! فتركه عليّ وتعرض له حسان .

ومن اليسير أن يدرك القارئ من الشعر الذي يقرؤه للإمام علي قوة صلته به أو بعده عنه من اللفظ والأسلوب والغرض ، ومن السمو اللغوي الذي كان يعيش الإمام في سمائه .

وقد يعود علينا بعض القراء أحياناً بطلب التحقُّق ممّا قاله الإمام وما لم

يقله من هذا الشعر الذي نعرضه ممّا نسب إليه، فنود لذلك أن نسبق إلى القراء بأمور :

الأول أن الإمام (ع) غلَبَ نثره وكثر وطال ، أما شعره فقليل قصير ، ولذلك لم يكن له في الدراسة ما لنثره . على أنه لا يغيب عن البال ما حدث من اختلاف المحققين حتى في نثره الذي أورده له الإمام الرضي في نهج البلاغة .

والثاني أن المنسوب إليه من الشعر قد اتجه اتجاهاً خلقياً دينياً فلم يُعْنَ الدارسون به عنايتهم بفن الشعر في الأغراض الأخرى لأنهم اعتبروه شعراً ليّناً وصاغوا للشعر الليّن قضية تقول « إذا سلك الشعر سبيل الخير لانَ » .

والثالث أنه لما كان شعراً يسلك سبيل الخير فقد شاع على الألسنة وذاع في مجالس الوعظ والذكر . وتعددت نسبته إلى رجال لهم القدرة على نسج مثله ، ومن ذلك ما نسب من شعر بذاته إلى الإمام ثم نسب مرة ثانية إلى الشافعي محمد ابن إدريس فتاهت الحقيقة واختلطت المعرفة .

ومن أمثلة ما نسب إلى الاثنين مقطّعة من بيتين تقول :

أخي لن تنالَ العلمَ إلاّ بستة سآتيك عن مجموعها ببيان
ذكاء وحرص واصطبار وبُلْغة وصحبة أُستاذ وطول زمان

والأمر الرابع أننا نُعْنى في هذا العرض بالموعظة والإرشاد ، ونصرف كل همنا في المعاني والمسالك التي يقصد إليها هذا الشعر . ولا يفوتنا أن نُعْنى بالتنبيه إلى القول الجيد منه وإلى الذي لم يبلغ درجة الجودة ناظرين إلى المصادر الدينية الأولى التي يشتق منها .

ولا يفوتني أيضاً في هذا التقديم أن أنبّه إلى أنها كلمة موجزة محددة تقصد إلى الناحية الشعرية للإمام وإلى الشعر المنسوب له دون عرض تاريخه وتفاصيل سيرته إذ ليس هذا مكانها . والكلمة لا تستساغ إلاّ في حينها وعند دواعيها .

نعم ، قد تضطرنا بعض المقطعات إلى أن نسوق أخباراً مفصلة بعض التفصيل من سيرة الإمام ، ولكن ذلك يكون في أثناء عرض الديوان المنسوب إليه وصلة الشعر بالحادث الذي دعا إليه لتكون الكلمة في وقتها وعند ميقاتها .

وإن المقطعات التي جمعتها منسوبة للإمام ربما قاربت المائة في مختلف القوافي السهلة التي يعينُ عليها الارتجال أو تُعين عليه .

وقد عملت على ترتيبها في قوافٍ متتابعة الحروف الخطيّة مع شرحها شرحاً موجزاً ، كذلك الذي اتبعناه في شرح شعر الشافعي وشعر ابن عربي .

وإنّا لنرجو أن يفسح الله في العمر ويوسع في الفهم ويهدي إلى السداد حتى تتم الفائدة المرجوة من كلمة الخير والدين وهو الهادي المعين .

عبد العزيز سيد الأهل

قافية الهمزة

الناس سواء

أورد الغزالي في الإحياء والشبلنجي في نور الأبصار ، ولويس شيخو في مجاني الأدب ، والشريشي في شرحه للمقامة الكرجية من مقامات الحريري — مع اختلاف في بعض الألفاظ ، واقتصار الشريشي على البيتين الأولين منها — هذه القطعة :

النَّاسُ من جِهة التَّمثيلِ أكفاءُ
أَبـوهُمُ آدمٌ والأُمُّ حـواءُ

فإن يـكن لهُمُ من قبل ذا نَسَبٌ
يُفاخرُون به فالطِّينُ والماءُ

ما الفَضْلُ إلا لأَهل العِلْم إنهُمُ
على الهدى لمن استهدى أَدِلاَّءُ

وقيمة المرءِ ما قد كان يحسنه
والجاهِلُونَ لأَهل العلم أَعداءُ

وإن أَتَيْتَ بجود من ذوي نسب
فإن نِسْبَتَنا جـودٌ وعَلياءُ

فَفُزْ بِعلم ولا تطلب بـــه بدلاً
فالناس موتى وأَهل العلم أَحياءُ

المقامة الكرجية نسبة إلى الكَرَج – بفتح الكاف والراء بعدهما جيم – مدينة كانت معروفة موصوفة بين أصبهان وهمذان ، ولا سيما بعد أن نزلها في الإسلام بنو عِجْلٍ ، وجعلها أبو دُلَفٍ العِجْلي في العصر العباسي داراً للأجناد ، وبنى فيها هو وقومه الحصون والقصور فأصبحت مدينة عظيمة .

وقد كتب الحريري مقامته المنسوبة إلى هذه المدينة يصف بها ما لقيه فيها من برد الشتاء وجهد الحاجة ثم ضمّنها أرجوزة رائية لطيفة .

أما البيتان الأولان في هذه المقطّعة فقد جاءا في أثناء شرح المقامة منسوبين لعلي بن أبي طالب وقد قدم لهما الشريشي بقوله :

كانت العرب تتفاخر بالأحساب وتتعاظم بكرم الآباء فنزل القرآن العظيم بترك ذلك في قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ وفي قوله : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

هذا ، وقد اقتصر صاحب إحياء علوم الدين على إيراد ثلاثة أبيات من هذه المقطعة هي الثالث والرابع والسادس .

وقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، في حجة الوداع : « أيها الناس ، إنما الناس إخوة وليس لعربي على أعجمي فضل إلاّ بالتقوى ، أيها الناس ، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب وأكرمكم عند الله أتقاكم » ثم صار هذا حكماً شرعياً تصان به دماء المسلمين بينهم لقوله ، صلى الله عليه وسلم : « المسلمون تتكافأ دماؤهم . . . » .

هذا ، ولما كان علي بن أبي طالب في أول من تأثر بالقرآن وحديث النبي

فقد صاغ المساواة في الأصل على ذلك الحكم الشرعي ثم بيّن أن التفاضل بينهم إنما يكون بالعمل والتقوى .

والناس من حيث الأصل الذي نشأوا منه متماثلون أكفاء ، فإن رجعت نسبتهم إلى الجذر الثاني الحي الحاكم المترفّع فهم جميعاً أولاد آدم وحواء، وحينئذ لا يتفاضلون بتفاضل ولا ترفّع لأنهم من أصل حي واحد هو الماء المهين .

وإن رجعت نسبتهم إلى الأصل الأول فإنه أصل ميت صامت متواضع وهو التراب والماء أو الطين الفخّار أو الحمأ المسنون والصلصال ، فلا حقّ لأحد منهم أن ينتفخ سحره ونحره أو يفخر ويتشامخ على غيره .

وهذه المساواة من جهة الطبع والمبدإ . أما حين يختلفون في عقول وأقوال ودرجات وأعمال، فإنه يحق لمن يكمل عقله وقوله وتَحْسُنُ معاملته وعمله أن يفخر على غيره ، وهذا التفاخر مباح في الدين لأنه يرجع إلى الحركة الحيوية والنهضة العمرانية والقيم الخلقية .

وكذلك جذور الأشجار كلها غريق في التراب والطين لا يمتاز جذر عن جذر ، وإنما تتفاضل في الأكُل إذا علت فروعها وبرزت ثمارها .

وبعد البيتين اللذين أوردهما الشريشي تتحدث القطعة عن فضل أهل العلم على الجهلاء وعن قيمة المرء فيما يحسنه ، وهو كلام في الشعر مماثل لما قاله الإمام علي في النثر . ومن المعروف المشهور قوله « قيمة كل امرئ ما يحسنه » .

ثم تنتقل القطعة إلى فخر القائل بأنه إذا قيس قومه إلى جميع ذوي الأعراق والجود ثم سَبَقَ الناسُ بأنسابهم وأعمالهم كان قومه أسبق وأهله أعرق لأنهم الجود نفسه والعلياء ذاتها .

وختمت القطعة بالتوصية بأن يكون همُّ المرء الأولُ في حياته طلبَ العلم والقيامَ به حتى تتحقق له الحياة ، إذ هي ليست بقيام الأعضاء بالغذاء ولكنها بيقظة العقول وكثرة المعلوم والمعقول .

الشدة والرخاء

وعن الكشكول للبهائي ومجاني الأدب من الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين قوله :

هي حالان : شدةٌ ورخاءُ
وسِجَالان : نعمة وبــلاءُ

والفتى الحاذق الأَريب إذا ما
خانه الدهر لم يخنه العزاءُ

إن أَلَمَّتْ ملمَّةٌ بي فــإني
في الملمات صخرة صمَّاءُ !

حائزٌ في البــلاءِ علماً بــأَنْ
ليس يدوم النعيم والبلواءُ

تصف هذه الأبيات الدنيا بأنها دائمة التقلب بين الشدة والرخاء ، وهي تَسْقي على الدوام بكأسين من الحلو والمر . والمرء العاقل المدبر هو الذي يوفر من الرخاء للشدة ومن الحلو للمرّ ، فإذا أقبلت عليه الدنيا بوجهها الكدر ومدت له كفها الخائن اصطبر لها وتعزى عن آلامها .

ويصف القائل نفسه بأنه قدوة للصابرين وأهل العزاء ، فإذا نزلت به

نازلة تلقاها بقلب لا ينكسر منها ولا يتخدّد بضرباتها ، وكأنها حبّات الرمل أو حصيات الخَذْف لا تتخدّد منها الصخرة الصماء مهما توالى سقوطها أو تتابع القذف بها .

وقد تعلّم قائل هذا الكلام من البلاء والكرب أنه زائل لا محالة إلى نعيم آخر أو إلى زوال للنعيم والبلاء معاً .

وقد كان من جيد الفكر أن ينسب الأستاذية في الإيذان بالزوال إلى البلاء دون النعمة لأن النعمة توقع في الغفلة والجهل ، ومن شأن الفارق فيها أن لا يتفطن إلى زوالها ، أما أهل البلاء فهم أهل الهمة العلياء واليقظة والرجاء .

قافية الباء

معاداة الرجال

عن كنز العمال : قال علي (ع) :

إياكم ومعاداة الرجال ، فإنهم لا يخلون من ضربين : من عاقل يمكر بكم أو جاهل يعجل عليكم بما ليس فيكم ، واعلموا أن الكلام ذكرَ والجواب أنثى ، وحيثما اجتمع الزوجان فلا بد من النتاج . ثم أنشأ يقول :

سليم العِرْض من حَذِرَ الجوابا
ومن دارى الرجال فقد أَصابـا

ومن هاب الرجال تهيّبوه
ومن حَقَر الرجال فلن يُهابا

وهذا من بليغ قول علي وسليم رأيه وعظيم تجاربه ، وقد حذَّر من معاداة الرجال جميعاً على شتى صفاتهم : عقلاء يتأنون وجهلاء يتعجلون ، والعداوة لا تجلب إلاّ شرّاً متأنياً يدبره العاقل أو شرّاً متعجلاً يسرع به الجاهل .

وذكر الإمام أن العداوة تنشأ من الكلام وقد حذَّر منه ، والبادىء كان بدؤه منفرداً عَزَباً ليس له بنون ولا ذرية، فإذا أجيب على هذا البدء ازدوج الكلام فأنتج أولاداً وذرية ، وهاج أفكاراً وبلابل ، وأثار قلوباً ونفوساً .

وقد عَرَض الشعر لوجوب الجواب الحَذِر ليسلم العرض ، وأوجب مداراة الرجال ، وقال إن الصواب مداراتهم — وهذا في غير حق الله فإن حقه ليست فيه مداراة — أما فيما عدا هذا الحق الأول فإن مهابة الرجال تجلب المهابة وتحقير الرجال يجلب الاحتقار .

الجهل والحلم

وعن الكشكول من المنسوب للإمام :

وذي سَفَهٍ يواجهني بجهل
فأكره أن أكون له مجيبا

يزيد سفاهة وأزيد حلماً
كعود زاده الإحراق طيبا

وليس أروع من هذه المقابلة بين جاهل وحليم وسفيه وعاقل ، وقد صوّر البيتان الحلم في السكوت عن مواجهة اللئيم أو معاملته بمثل ما يفعل ، بل إنه كلما ازداد الجاهل في بغيه وكلما طغى السفيه في عدوانه فإن ذلك لا يُغضب الحليم ولا يجعل صدره ضيقاً حَرَجاً ، وإنما يقابل كل ما يغضبه بالعفو والإغضاء .

وذلك شأن العود الطيب إذا أحرق بالنار ازدادت رائحة الطيب فيه وذاعت منه ، وكان العود يكتمها قبل أن يشتعل أوارها ويتعالى شرارها .

وكذلك الحليم لا يظهر فضله في الحلم والسماحة إلاّ إذا أوذي ، وهو كلما زاده الجاهل إيذاء ازداد طيباً وذكاء .

ولا يخفى ما في البيتين من بلاغة بالتشبيه الذي يسميه أهل البلاغة تمثيلاً ، وقد جاء بالمشبه به كالحجة والدليل من الطبيعة الثابتة للأشياء ، فكان قولاً بالغاً ودليلاً دامغاً .

واعظ المشيب

وعن الكشكول للبهائي قول علي (ع) :

إلامَ تجرّ أذيـــال التصابي
وشيبُك قد نَعى بُرْدَ الشبابِ

بِلاَلُ الشيب في فوديْك نادى
بـأَعلى الصوت : حيَّ على الذهاب

يلوم البيت الأول من يظل متمادياً في تصابيه مرتمياً على شهواته غير منتبه ولا منزجر . بينما لونه قد تغير من السواد إلى البياض ، وزمانه قد انتهى من الصبا وصار إلى الهرم .

ويدعم البيت الثاني النهيَ عن التصابي بالنداء على الذهاب وتوديع الدنيا بأعلى صوت ومن كل ناحية ، وكأنما هو يدور كما يدور المؤذن على المنارة لينادي كل غاد ورائح إلى المناجح والمفالح .

وصور البلاغة في البيتين قد توفرت فيما تَصَوَّرَهُ القائل البليغ في التصابي، من أن له أذيالاً يجرها اللابس الماشي فتسير وراءه بعد أن يكون زمانه قد فات وصباه قد مات ، فلم يعد صالحاً له أن يلبس المشهور المنظور أو يجر الطويل المجرور .

كما تتوفر صور البلاغة فيما يفعله الشَّيْبُ المهيب من طرحه عن نفسه ثوب الشباب القشيب أو اللعب المعيب .

وفي تشبيه الشيب منادياً مكرراً للنداء يدور من فَوْدٍ إلى فَوْد – أي من ناحية إلى ناحية – لتسمعه الأذنان وكأنه بلال قد وقف على مئذنة الدعوة يأمر بوجوب الذهاب من مكان والإقبال على مكان ، أما الأول فهو الدنيا وأما الثاني فهو الآخرة ؛ والآخرة خير وأبقى .

وقد حصر تشبيه الداعي في بلال لأنه كان خير المنادين وأندى المؤذنين ، وكان متى نادى بين يدي الرسول وبإذنه فالطاعة واجبة والتلبية أمر لا تردد فيه .

وأرجو أن أنبه القراء الكرام إلى أن فعل الأمر « حيَّ » والذي نسمعه في كل أذان إنما هو مشدد الياء والثانية منهما مفتوحة .

كما أرجو أن أنبه إلى مقطعة أخرى في نداء الشيب ووعظه منسوبة للإمام وقد أوردها الكشكول للبهائي ومطلعها :

أَأَنعم عيشاً بعد ما حلّ عارضي
طلائعُ شيب ليس يفنى حسابها

ولكن هذه القطعة نسبت للإمام الشافعي أيضاً وقد أوردناها من قبل في ديوانه الذي طبعه المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة بغير ترتيبها في الكشكول .

وعن مجاني الأدب من القول المشهور وقد نسب للإمام :

كن ابن من شئت واكتسب أدباً
يغنيك محموده عن النسب

إن الفتى من يقول ها أنذا
ليس الفتى من يقول : كان أبي !

هذان البيتان صارت لهما شهرة فاستغنيا عن الإشارة إليهما ، وقد شاعا كحقيقة ثابتة بين الناس ، وكان لهما هذا الحظ لنصوع لونهما وغلوّ جوهرهما وخفة ألفاظهما ، وكأنهما مخترعٌ تداوله الناس جميعاً بالانتفاع فصارت له حقيقة تغطي اسم المخترع وتُغْفِل اسمَ الصاحب ، ولكنها لا تترك داراً إلاّ دخلتها ولا يداً إلاّ تداولتها ، وهو مصير كل نافع مشهور .

أما المعنى فإن الأدب المكتسب المحمود يرفع شأن المرء أكثر ممّا يرفعه نسبه ، بل قد يُزْري بالمرء نسبه الوضيع حين يرفعه — لا محالة — أدبُه الرفيع .

ولا يستحق الفخر إلاّ من يعمل له ويكتسبه فيعلي به نفسه ويعلي به أهله وقومه . أما المتكلون على الآباء والمفتخرون بغير ما كسبته أيديهم فما أحراهم بالخزي والعار والخذلان والانقهار .

ولقد قالوا في الحكمة القديمة :

إن المرء من حيث يوجد لا من حيث يولد .

السفه والصواب

وعن زهر الآداب للحصري القيرواني ممّا نسب للإمام حين قَتَلَ عمرو ابن عبد وُدّ فسقط القتيل وانكشفت عورته فتنحى عنه علي (ع) وهو يقول:

آلى ابنُ عبد ـ حين شدَّ ـ أَلِيَّةً
وحلفتُ ـ فاستمعوا إلى الكذابِ

أَن لا يَفِرَّ ولا يُمَلِّلَ فالتقى
أَسدان يضطربان كل ضِرابِ

اليومَ يمنعني الفرارَ حفيظتي
ومصمم في الرأْس ليس بنابي

أَعرضتُ حين رأَيته متقطِّراً
كالجذع بين دكادك وروابي

وعفَفْتُ عن أَثوابه ولو انَّني
كنت المقطِّر بَزَّني أَثوابي

نَصَرَ الحجارةَ من سفاهة رأْيه
ونصرتُ دين محمد بصوابِ

لا تحسبن الله خاذل دينــه
ونبيّــه يــا معشر الأَحزابِ

كان عمرو بن ودّ فارس قريش وشجاعها ، وكان أول من تقدم على الخندق في غزوة الأحزاب ودعا إلى المبارزة فبرز إليه علي بن أبي طالب . وكان ابن عبد ودّ قد أقسم أن لا يفر ولا يتململ ويتقلب ، وذلك ليحمس نفسه على القتال وقلبه على اللقاء .

أما عليّ فقد أقسم كذلك ولكنه لم يغلظ القسم لأنه الحيدرة الشجاع . حتى إذا راوده الخوف فإن حمية الدين تمنعه من الفرار وتضمن له الانتصار .

وحين التقيا سدد عليّ إلى رأسه سيفه ذا الفقار . وكان سيفاً لا تنبو مضاربه ، فلما هوى ابن ودّ وخرّ صريعاً انكشفت عورته فغَضّ عليّ — عليه السلام — عنه بصره وتركه معفراً متلبداً في الرمال .

وللمسلم المحارب حين يقتل قِرْنه أن يستولي على سَلَبِه فلا يدخل في الغنائم العامة ، ولكن عليّاً عفّ عن سَلَبِ ابن عبد أنفةً وتعالياً . ولو كان ابن عبد هو الذي له الغلب لم يعفّ عن السَّلَب .

وهكذا كان فرق ما بينهما بعيداً .

وكان ابن عبد يعبد الحجارة ويدين للأصنام ويحارب من أجلها ، وهو سفه في الرأي أيّ سفه ، أما عليّ فكان على الإسلام وهو غاية الصواب .

وربما كان الأحزاب جميعاً يظنون أنهم سينتصرون ، وهو كذلك سفه منهم ، لأن الله لن يخذل دينه الذي أنزله ونبيه الذي أرسله .

ثم نعود إلى الأبيات بالتفصيل :

أما الأبيات الثلاثة الأولى فمعناها أن ابن عبد أقسم قسماً كاذباً حين شدّ

على حيدرة بأنه لن يفرّ ولن يتملل – بتشديد اللام الأولى – أي لن يتقلب .

ثم أقسم عليّ – عليه السلام – قسماً لم يؤكده لأنه قسم صادق ، إذ هو الضارب المحامي عن الدين ، وربما كانا من غير هذه الفروق متقاربين في الشجاعة . وكان أكبر الفروق بينهما أن المشرك كان كاذباً وأن المسلم كان صادقاً .

وفي البيتين الرابع والخامس خالف الشاعر بين الرجلين في العفة والدناءة وصوّر عفة المحارب الشجاع في الإعراض عن التمثيل بالقتيل والامتناع عن أخذ سَلَبِهِ حتى ولو كانت قد أحلته آداب الجهاد .

ومن قبل أوضح البيت الثالث أن الذي يمنع البطل الشجاع من الفرار أمران هما المقاتل نفسه ثم سيفه ، ولكل منهما صفة وفضل : فصفة المقاتل أنه ممتلىء حميّة وغضباً ، وصفة السيف أنه مصمم وأنه يقصد رأس عدوه ، ثم هو لا يخطىء ولا ينبو ومن ذلك تنبع صفة ثالثة وهي صفة المقاتل بسلاحه وهي التمكن من استخدامه في المكان الذي يقصده والمقتل الذي يريده .

وقد أضاف البيتان بعده صفة العفة للمقاتل فتمت بذلك آداب القتال في الإسلام ، وتتمثل هذه الآداب في صنف المقاتل وسلاحه والصلة بينهما وعفة النفس والوثوق في الظفر والانتصار .

والبيتان الأخيران يفرقان بين المشرك والمسلم والرأي الفاسد والصحيح والعقيدة العقيمة والسليمة ، وفيهما إنذار للأحزاب الملفقة والقوى المرقعة بأنهم مهما تحزبوا فإن الله مقيمٌ دينه وناصرٌ نبيه .

وعندئذ فليست الهزيمة لابن عبد المقتول وحده لكنها لاحقة بأحزاب الخندق وبكل من تحزب على الرسول والمسلمين وفي خذلان الحق والدين .

الاغترار بالدنيا

عن الكشكول للبهائي قول علي (ع) يحذر من الاغترار بالدنيا :

فلَمْ أَرَ كالدُّنيا بها اغتر أَهلهـا
ولا كاليقين استوحش الدهرَ صاحبُه

أَمرّ على رسم القريب كـأَنما
أَمـر على قبر امرئ مـا أُناسبُه

فوالله لولا أَنـني كل ساعـة
إِذا شئت لاقيت امرأً مات صاحبه

جواب لولا في البيت الأخير محذوف وتقديره : لولا ذلك لما خفّ حزني . وقد أسرعت بهذه الملاحظة لئلاّ يظن القارىء أن في الكلام عيباً ، وقد جرى العرب على حذف الأجوبة للعلم بها ، ووقع مثل هذا الجواب صريحاً في قول نهشل في الحماسة قال :

وهوَّنَ وجدي عن خليلي أنني إذا شئت لاقيت امرأً مات صاحبه

وصاحب الكشكول يقول : إن بعض شارحي الديوان المنسوب للإمام جعل لولا في هذا البيت للتخصيص فأخطأ وأساء وخبط خبط العشواء .

وعلي (ع) يريد أن يقول إنه لم يرَ كالدنيا قد اغتر بها أهلها اغتراراً خادعاً فليس لهم من ورائه أمن أو راحة ، بل من ورائه استيحاش وآلام وأمور جسام .

وأعجب الأمور أنه إذا مات صديق أو قريب وخلت منه داره — غير رسوم وذكريات — فإن المرء إذا مرّ بهذه الرسوم مرّ بما يشبه القبور يسكنها بُعَداء قد مرّت عليهم حقب ودهور ، وإذا طافت به ذكرياتهم فكأنها طيوف أحلام وكأن لم يكن بينه وبين أصحابها مودة ولا صحبة ولا قرابة ولا صِهرَ .

ولكن هذه العادة من الدنيا في العزاء والنَسيان كانت سبباً يبترد منه القلب وتهدأ النفس فيخف وقع الحزن وينقطع حبل الأسى ، ولولا أن المرء يرى ذلك في كل الأهل والأصحاب والولد والأحباب ما خف حزنه وما انقطع أساه .

الفرج القريب

وعن زهر الربيع للجزائري : مما ينسب إلى أمير المؤمنين :

إذا ضاق الزمان عليك فاصبر
ولا تيأَس مـــن الفرج القريب

وطِبْ نفساً بما تلد الليـــالي
عسى تأْتيك بالولـــد النجيب

يدعو الإمام الناس إلى الصبر إذا ضاقت بهم الأمور لأن بعد العسر يسراً :

والليالي من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيبه

الأَمر بالتعلم

عن القرطبي في سورة الصافات في قوله تعالى ﴿إنّا خلقناهم من طين لازب﴾ أي لاصق قاله ابن عباس : ومنه قول علي رضي الله عنه :

تعلَّمْ فإن الله زادك بسطةً
وأَخلاق خيرٍ كلها لك لازبُ

وهو حث من الإمام على التعلم لأن الله منح عبده بدناً وعقلاً وقلباً تحتمل كلها مؤونة التعلّم وشدائد التمرّن . وقال إن التعلم واكتساب الأخلاق الكريمة لازم للإنسان بل واجب أن يكون به لازقاً ثابتاً .

قافية التاء

فضيلة الصمت

عن مجاني الأدب : قال علي بن أبي طالب (ع) :

إن القليل مـــن الكلام بـأَهلـــه
حسَنٌ وإن كثيره ممقـــوتُ

ما ذلَّ ذو صمت وما من مكثر
إلاَّ يَزِلُّ . وما يصابُ صَمُوتُ

إن كان ينطق ناطق من فضله
فالصمت دُرٌّ زانـــه يـــاقوت

ليس من شك في أن الكلام واجب في موضعه والسكوت واجبٌ في موضعه ، فلا يحسن السكوت في موضع الكلام ولا الكلام في موضع السكوت ، وإنما الأمر كما قال الإمام في نهج البلاغة : لا خير في الصمت عن الحكم كما أنه لا خير في القول بالجهل .

ولكن هذا الشعر يدعو إلى إحكام الكلام قبل إخراجه ، فإن لم يُحْكَم كان سبباً في سقوط قائله . ومن طبع الإحكام في القول أن تتركز فيه المعاني الصحيحة ثم تجمعها الألفاظ الناصعة القليلة ، فإذا لم يرزق القائل هذا الإحكام فقال وثرثر وأطال وأكثر ، كان كلامه مكروهاً ممقوتاً . فكان السكوت به أولى إذ يتجنب أن يخطىء ويتحاشى أن يَزِلَّ .

ومن القواعد التي اصطلحوا عليها في الأدب قولهم « المكثر مُسِفّ » — قد نقلوها من الطائر الذي يكثر الطيران ويشق على نفسه بقطع المسافات ، فإنه إذا تعب وثقل جناحاه دنا نحو السّفْل وهبط عند سطح الأرض ، مع أن الجواء العليا هي المجال لأقوى الطيور ومسارح العقبان والنسور .

وكذلك المكثر في الكلام قصداً للكمّ دون الكيف بل المكثر من كل شيء والمنهوم وراء اللمّ والجمع — ولو لنفسه — فإنه موضع للزلل لا محالة ، وهو إذا لم يقع في ورطة أو ينحدر إلى غلطة فإن في الإكثار نفسه نذالة وفيه استطالة .

وحتى لو كان النطق في مكانه شرفاً وواجباً فإن الصمت خير منه لو كان في الجماعة من يتفاضلون في الكلام ، فإن الحق يجب أن يرد إلى أهله والقوس يجب أن تعطى لباريها . وكما قال الإمام عليّ « المرء مخبوء تحت لسانه » فما يقوله يخبر عن نفسه وعقله فيكشفه أو يشرفه .

وحينئذ يفوز المتكلم والصامت . ولكن الصامت أكثر فوزاً وأضخم ربحاً ، ولو مُثِّل صمته بالجوهر الكريم لكان تحفة صائغ صاغها من درّ البحر وياقوت الأرض ، وهي تحفة جامعة وحلية ناصعة ، لأنها تتألف من صيد الأعماق وأغلى الجواهر على الإطلاق .

هذا ، فإذا بلغ بنا الأمر حدّ الكلمة في ذاتها والمقالة في ميزانها كان علينا أن نسمع قول الإمام عليّ (ع) في هذه الكلمات :

« الكلام في وثاقك ما لم تتكلم فإذا تكلمت به صرت في وثاقه ، فاخزن لسانك كما تخزن ذهبك وورقك ، فرب كلمة سلبت نعمة وجلبت نقمة » .

ثم قوله أيضاً « لا تقل ما لا تعلم بل لا تقل كل ما تعلم ، فإن الله فرض على جوارحك كلها فرائض يحتج بها عليك يوم القيامة » .

وحدانية الله

وعن إيقاظ الهمم في شرح الحكم لابن عجيبة الحَسَنيّ نسب إلى الإمام أنه قال :

رأَيت ربي بعين قلبي
فقلت لا شك أَنت أَنتا

أَنت الذي حُزْت كل أَيْن
بحيث لا أَيْنَ ثَمَّ أَنتا

فليس للأَين منك أَينٌ
فيعلم الأَين أَين أَنتا

وليس للوهم فيك وهم
فيعلم الوهم كيف أَنتا

أُحطت علماً بكل شيءٍ
فكل شيء أَراه أَنتا

وفي فَنائي فَنا فنائي
وفي فنائي وُجِدْتَ أَنتا

لا تتحقق الرؤية والمشاهدة إلاّ بالقلوب ، وهي عند أهل التصوف مكان التجلّي الرباني ، فهي التي تشهد وترى من غير حدّ ولا صفة إلاّ كما وصف الله نفسه بقوله : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ .

وفي ملك الله كل الكائنات سواء تجسّمت أم لم تتجسّم ، وفي ملكه وتحت أمره وتصريفه كل الأمكنة وكل الأزمنة ، من حيث لا يحتويه مكان ولا يحده زمان.

وربما كان للوهم والخيال امتداد أكثر من امتداد الحس والعقل ، وربما ذهب الوهم والخيال إلى أبعد من غاية ، وإلى أوسع من لا نهاية ، ولكنه مع ذلك يعود خاسئاً حسيراً لا يعرف شيئاً من كنه الذات التي تجل عن الجهات وتتنزه عن الامتدادات .

وعلم الله سبحانه هو العلم المحيط بكل معلوم ، عِلماً حقاً دائماً طِبْقاً لما خلقه ، وكأنما الأشياء المخلوقة هي نفسها علمه ، وقدرته سبحانه تُرى فيها وحكمته تظهر عليها — ومن رأى القدرة والحكمة فكأنما رأى القادر الحكيم .

والوجود كله بين قدرة وحكمة . وقد قال أحد الصوفية : « ما رأيت شيئاً إلاّ رأيت الله فيه — أي بقدرته وحكمته — فلولا ظهور أنوار الصفات ما عرفت الذات ، ولولا الكثيف ما عرفت اللطيف » . وهذا من قول عليّ في هذا الشعر : فكل شيء أراه أنتا .

أما البيت الأخير فهو رنّة زهد وزفرة تصوف ، ومعناه أن السالك إذا بلغ درجة العارف فَنِيَ عن نفسه ولم يبقَ في قلبه وذكره إلاّ الله .

ولكن حذار من أن تظن أنه حلول أو اتحاد فإن هذا لم يقله إلاّ أهل الإلحاد. والإمام عليّ يقول :

« فمن وصف الله سبحانه فقد قَرَنه ، ومن قرنه فقد ثنّاه ، ومن ثناه فقد جزأه ، ومن جزّأه فقد جهله ، ومن جهله فقد أشار إليه ، ومن أشار إليه فقد حدّه ، ومن حدّه فقد عدّه ... ومن قال فيم ؟ فقد ضمّنه ، ومن قال علام ؟ فقد أخلى منه . كائن لا عن حدث . موجود لا عن عدم . جلّ الله وعلا علواً كبيراً » .

مسافة الدهر

وعن الكشكول من الديوان المنسوب للإمام :

أَلم تر أَن الدهر يوم وليلة
يكران من سبت جديد إِلى سبت

فقل لجديد الثوب لا بد من بِلًى
وقل لاجتماع الشمل لا بد من شَتِّ

زمن الدهر كله متشابه ، وهو من شطرين : شطر الليل وشطر النهار ، والشطران ماضيان كل منهما في إثر الآخر . ومهما جدّ منهما جديد فهما ذاهبان موليان .

وقد نظم الشاعر الأيام في النظام العربي الذي يحسب السبت أول الأسبوع ، ولكن في كلمة السبت نكتة بديعة هي معنى هذه الكلمة في اللغة العربية بل في اللغات السامية ، ومعناها السكون ، فكأنه أراد أن يشير إلى أن كل ما تحرك من الدهر والخَلْق أصله من سكون وهو آيل إلى السكون . والله أعلم .

وهذا الدهر الذي يمر بنا ما يلبث أن يزول جديده ويتشتت شمله ، فعلى كل مؤمن أن لا يغترّ بما يلبسه من زمن باسمٍ ، أو بما يزدان فيه من دهر ضاحك ، فإنه صائر لا محالة إلى الحزن والبِلى .

كما أنه على المؤمن أن لا ينخدع بما حوله من حفاوة واجتماع وسرور

وصحة ، فإن ذلك كله آيل للتفرق والتمزق ، وهو نفسه من هذا المتفرق المتمزق ، ولا يبقى إلاّ وجه ربك ذو الجلال والإكرام .

والمعنى الذي في آخر شطور البيتين تعلق به البحتري فأبدع الأخذ والاقتباس فقال :

أرى علل الأشياء شتّى ولا أرى التجمّع إلا علــةً للتفرق

عظة غالية

عن تاريخ بغداد للخطيب البغدادي :

سُمِعَ الفتح بن شخرف يقول : رأيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في النوم – أو فيما يرى النائم – فقلت له : يا أمير المؤمنين ، أوصني .

فقال لي : ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء ، وأحسن من ذلك تِيهُ الفقراء على الأغنياء .

قال : فقلت له : زدني . قال : فأومأ إليّ بكفه فإذا فيه مكتوب :

قد كنتَ ميتاً فصرتَ حيّاً
وعــن قليل تصير ميتا
أَغْيَى بدار الفناءِ بيتٌ
فابْنِ بدار البقاءِ بيتا

الموتَ في الدنيا هو الأصل ، هو أولها وهو آخرها ، فلا إقامة بها إلاّ حين العمر المقدور للحياة بين الموتَتَيْن .

ومتى كان الأمر كذلك فقد وجب أن ينصرف مَنْ أصلُه الموت في هذه الحياة إلى بناء بيته في الآخرة، إذ لا يقوم بيت الدنيا أبداً ولا يستمر إلاّ أمداً .

وهذه الأبيات – كما يرى القارىء – منسوبة إلى عليّ بن أبي طالب (ع) في المنام ، وبعض الأقدمين كانوا يسجلون كل ما يرونه من الصحابة والتابعين والأئمة وأهل التصوف ويعلقون عليه الآراء والأحكام .

قافية الجيم والحاء

العسر واليسر

وعن الكشكول للبهائي من الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين :

إذا النائبات بلغن المدى
وكادت لهن تذوب المهجْ

وجل البلاء وعز العزاء
فعند التناهي يكون الفرجْ

من أفواه الصادقين تعرف الحقائق ، ومن أفعال الشجعان تُتَعَلَّم الجراءة والإقدام . وما لم تتأزم الأمور بالأبطال لم يدركوا الخروج من المآزق ولم يتعودوا الصبر والانتصار .

ومن علي بن أبي طالب يتعلم الناس الصدق والصبر والشجاعة والنصر . ولا يحسبنّ أحدٌ أن النصرة في كثرة التحصيل والأجل المدود الطويل ، فهذا لم يحسب حسابه أحد من أصحاب الرسول ، وإنما حسبوا النصرة في الاستشهاد أو إعمار البلاد .

وعليّ — رضي الله عنه — يصبر للنائبات ، ولا يكون صبره عند أوائلها ، فأوائلها هينة ، وإنما يصبر عند أواخرها إذا ثقلت وطالت ، حتى تكاد المهج منها تذوب وتنشق القلوب .

وهو يصبر للنائبات وحده ، حتى إذا لم يجد من يسلّيه ولم يرَ من يعزّيه ليقوّي قلبه ويكفكف من دمعه . وهو لا يصبر هذا الصبر ولا يقف وحده

هذه الوقفة إلاّ لأنه مؤمن بأن لكل شيء نهاية وأن الشدائد لها نهايات يكون بعْدها الفرج والمخرج .

وكيف لا يكون هذا إيمانه وإيمان كل من اتبع الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي بشر المعسرين بالقرآن وقول الله سبحانه فيه ﴿ فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا ﴾ ولن يغلب عسر يسرين ، أو يكسر ضعف قوتين !

الصلاة والتسبيح

وعن الكشكول من الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين – رضي الله عنه – :

اغتنم ركعتين زلفى إلى الله
ه إذا كنتَ فارغاً مستريحا

وإذا ما هممت بالقول في البا
طل فاجعلْ مكانه تسبيحا

يوصي عليّ (ع) كل مسلم بأن يذهب إلى النوافل ليشتغل بها متى وجد نفسه فارغاً من الأعمال مستريحاً من إشغال البال .

وليس من زمن أفضل ولا عمل أكمل من أن يملأ المسلم فراغه بالصلاة والنوافل لعلها تشفع له تقصيره في الفرائض إن كان مقصراً ، ويُكْمِلُها عليه إن كان مُنْقِصاً .

وجـــدير بالمسلم كذلك أن يلجأ إلى ذكر الله بلسانه ويلهج به دائماً ، ولا سيما إذا هم إلى قول من الباطل يوبقه ويحسب من سيئاته ، فأولى له حين ذلك أن يبدله بتسبيح لله وتمجيد ، أو فَزَعٍ إلى الركوع والسجود .

وكلمة التسبيح يراد بها الدعاء أو الصلاة أو هما معاً .

والإمام – رضي الله عنه – بهذا القول لا يكلف المشتغل في الخير والعامل أن يتنفل . ولا يكلف القائل في الحق أن ينصرف عنه لخالص الذكر والصلاة ، إذ من العبادة والتسبيح كل عمل في الكسب الحلال ونفع الناس وكلُّ قول في الصدق والحق والعدل ، فهذه كلها ذكر وحياة .

وكأن البيت الأول من قوله تعالى : ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ والله أعلم .

كتمان السر

عن عيون الأخبار : كان علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – يتمثل بهذين البيتين :

ولا تُفْشِ سرّك إلا إليك
فإن لكل نصيح نصيحا

فإني رأيت غُواة الرجا
ل لا يتركون أديماً صحيحا

ينصح الإمام أن لا يفشي المرء سره إلاّ إلى نفسه ، وحيث يكون الأمر كذلك فإنه لا إعلان ولا إفشاء بل هو محفوظ مصون ، وإنما يريد الإمام بإفشائه للنفس حتّى تصلحه وتعالجه فلا يهتّم به أحد غيرها ولا يتولاه أحد من دونها .

ومن كان هكذا من الرجال فإنه يكون من الناصحين ، ولكنه مهما كان منهم فإنه محتاج إلى من ينصحه ليكون دائماً يقظاً متذكراً .

فإذا ما غفل المرء عن سره وأذاعه فإنه سيجد شرار الرجال قد أقبلوا بألسنتهم على أديمه يفرونه وعلى عرضه يمزقونه ، وهذه هي الطباع التّي لا خلاص منها إلاّ لمن صان سره وحفظه في صدره ، بل عليه أن ينسى المكان الذي هو فيه من صدره فإن العرب تقول : من ارتاد لسره موضعاً فقد أذاعه .

قافية الدّال

برق المعالي

وعن الكشكول من المنسوب له قوله :

أَعاذلتي على إتعاب نفسي
ورَعْيي في السُّرَى روضَ السُّهادِ

إذا شام الفتى بَرْقَ المعالي
فأَهونُ فائت طيبُ الرقاد

وعلى عادة العرب في خطاب الشاعر صاحبته دون أن تكون له صاحبة يلوم عليّ – رضي الله عنه – من يلومه على إتعاب نفسه وسعيها في سبيل المعالي ، وحتى نفسه لو كانت هي اللائمة له فإنه يلومها ، لأن لومها يثبّط الهمة ويُحْبِط العَزْمة .

وهو يعلل لرفض العتاب بأن طبيعة النفس الناهضة ذات الأخلاق الفاضلة – وهي المعبّر عنها بالفتى – من عادتها أن ترفض النوم ولا تستطيب حلو الرقاد إذا ما رأت الآمال تلوح لها والسعادة تناديها .

والبلاغة العَلَوية تَتَّضح من الصور البيانية التي ألّفها القائل البليغ من جعله الليلَ زمناً للرعي ، والسهاد روضاً للاجتناء ، وتحبيب ذلك إلى النفوس وتقريبه للقلوب ، مع أن الليل ليس إلاّ زمناً للاحتجاب ، والسهاد ليس إلاّ حقلاً للشوك والقتاد .

وكذلك شبه المعالي بالبرق ، وهو من روائع التشبيه والتنسيب ، لأن المعالي

لا يدوم طلوعها ولا يستمر لمعانها ، بل هي كالبرق تخطف وتغيب ، فمن لم ينتهز فرصة إضاءة البرق حتى يسير فيه ، كان كمن ضيع تحصيل المعالي حين لاحت له ، فلم يخطفها عند الفرصة ولم يملكها عند النُّهْزَة .

وما أشبه ذلك أن يكون مشقوقاً من قوله تعالى ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم﴾ .

والصوفية صاروا أكثر الناس اهتماماً بهذا المعنى ، وهم يشيرون إلى البرق بأحوال التجلي التي تظهر وتغيب ، فيصيب منها المرء أو يخيب .

فوائد الأَسفار

وعن مجاني الأدب : قال علي بن أبي طالب :

تغرَّب عن الأَوطان في طلب العلا
وسافر ففي الأَسفار خمس فوائدِ :

تفرّج هــمّ واكتساب معيشة
وعلمٌ وآداب وصحبة ماجدِ

فإن قيل في الأَسفار ذلٌّ وغربة
وقطع فيافٍ وارتكاب شدائدِ

فموت الفتى خير له من مقامه
بدار هوانٍ بين واشٍ وحاسدِ

وهذا كلام معروف كثر حفظه وترديده ، وقد نسب إلى عليّ وإلى غيره ، ولا ضرورة إلى شرحه مع وضوحه ، ولكنّا ننبّه إلى بعض الطرائف الّتي فيه :

فأول هذه الطرائف أن الغُرْبَةَ المطلوبة هي الغُربة الطويلة الّتي تليق بطلب المعالي وبذل الجهود واكتساب هذه الفوائد الخمس ، وكل منها يحتاج إلى زمن طويل .

وثانيها أن الغُربة الموصَى بها هي الغربة البعيدة النائية لا الغربة الدانية من الدار والجار ، إذ القريبة لا تُقطع فيها الفيافي ولا تُركب الشدائد .

وثالثها أنه لا يدخل في هذه الغربة غربة الرحلة للتسلية والسياحة وراء اللهو ، إذ تزول عن هذه وهذه علة طلب المعالي .

ورابعها تنبيه النفوس إلى أن الوشاية والحسد تكون من الأقرباء لا من الأبعداء . وقد كان ابن المقفع صادق التصوير لمكان الحسد إذ قال : إن من لؤم الحسد أنه موكل بالأقرب فالأقرب . وكلام ابن المقفع قد سحب على ذيل عليّ في البلاغة ، وانتهاب من دَرْبِه في الصياغة .

غاية البعد

وعن مجاني الأدب قول عليّ بن أبي طالب في وصف ما بين الحي والميت من البعد السحيق في الدار وإن كانت دانية الجوار :

ذهب الذين عليهمُو وَجْدي
وبقيت بعد فراقهم وحــدي

من كان بينك في التراب وبينه
شبران فهو بغايــة البُعْدِ

لو بُعْثِرَتْ للخَلْق أَطباق الثرى
لم يُعْرَف المولى من العبد

مــن كان لا يَطَأُ التراب برجله
يطأُ التراب بناعم الخَدّ

مهما كان المرء مسروراً بمن حوله إذا هم جاوروه وخالطوه ، ومهما كان محزوناً عليهم إذا هم فارقوه وتركوه ، فإن الفراق واقع لا محالة واستبدال الحزن بالسرور ثوب لا بد من لبسه وارتدائه .

وإذا انفرط عقد الجماعة بقي من بقي منهم في الدنيا فريداً وحيداً لا يؤنسه ما كان من حبه لهم ولا يسليه ما جدّ من حزنه عليهم .

والبيت الثاني في المقطعة يحمل معنى أدبياً رائعاً ، وقد تداوله الشعراء منذ

قيل حتى كان شوقي أمير شعرائنا فاحتال له احتيالاً فريداً في رثائه لعاطف بركات فقال :

أخا سيشيل لا تذكر بحاراً بَعُدْنَ على المزار ولا بقاعا
وحقّك ما وراء نواك بُعْدٌ وأنت بظاهر الفسطـــاط قاعا

وقد أحسن شوقي ، إلاّ أن بيت عليّ أقرب وأوضح وأقل ألفاظاً وأسهل .

وأما البيت الثالث من القطعة فقد أوضح ما يصير إليه الموتى من البِلى وما تصير إليه العظام من الانحطام والاختلاط بحيث لا يبقى ما يميز الأبيض من الأسود ولا العبد من المُسَوَّد .

ويتصل البيت الرابع بهذا البيت لأنه يعظ بطَرْح الكبر والترفع على العباد . وكان من الحق أن يصير إلى هذه المعاني معنًى دينيّ هو أمر المعاد الذي تقول فيه الآية الكريمة﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴾ .

والبيت الأخير أخذ منه أبو العلاء في رثائياته قَبَساً إذ قال في إحداها :

كم صائن عن قبلة خدّه سُلّطت الأرضُ على خدّهِ
وحامل ثقـل الثرى جيدُه وكان يشكو الضعف من عِقْدِهِ

ولكن الخد في قول عليّ أصْوَنُ وأبرأ من الخد في قول أبي العلاء .

إعمار المساجد

وعن السيرة لابن هشام قول عليّ (ع) يرتجز في بناء مسجد النبي بالمدينة ، وكان أحد العاملين في البناء :

لا يستوي من يَعْمُر المساجدا
يدأَب فيها قائمـاً وقاعـدا
ومن يُرى عـن الغبار حائدا

وفي الكلام مفاضلة بين من يعمل بيده في بناء المساجد فيتغبر ويتكدر ، وبين من تأنف نفسه الكدرة وتخاف الغبار فلا يضع يده مع البانين ولا يرفع قامته مع الرافعين .

ومع أنه من الجائز أن يكون القعود والقيام الذي تحدث عنه عليّ — رضي الله عنه — صورة للعامل وهو يعمل في حمل الأحجار والرمال ، فيقعد ليلتقطها ثم يهمّ ليرفعها ويمضي بها ، فإن فيها أيضاً ذكراً لفضل من يعمر المساجد بالصلاة والقيام بعد بنائها وإعلاء جدرانها ويدأب على الصلاة مع الجماعة فيها ، فيكون الكلام من الجوامع .

ومن بَدِيهِ الرأي أن يُلْمَحَ أن الباني للمساجد يكون أولى الناس بالدأب على الصلاة فيها ، فله بذلك أجران : أجر الاشتراك في البناء وأجر الاستمرار في العبادة .

أما المزوَرُّ المتجانف فهو بضدّ ذلك ، إذ لم يصبه غبار الشَّيْد والبناء ولا غبار السجود والانحناء .

ويقول ابن هشام في السيرة :

سألت غير واحد من أهل العلم بالشعر عن هذا الرجز فقالوا : بلغنا أن عليّ بن أبي طالب ارتجز به فلا يُدْرَى أهو قائله أم غيره .

معاودة الإحسان

وعن الكشكول من المنسوب لأمير المؤمنين :

إذا كنت في الأَمس اقترفت إساءة
فَثَنِّ بإحسان وأَنت حميدُ

ولا تُرْجِ فعل الخير يوماً إلى غـد
لعـلَّ غـداً يـأتي وأَنت فقيدُ

ويومك أن عـاتبتَه عـاد نَفْعُه
إليك . وماضي الأَمسِ ليس يعـودُ

أولى بالمرء أن لا يدوم على إصراره على الشر ، بل عليه أن يحاسب نفسه على كل ما يفعل وما تقدمه يداه ، فإذا بدا له أنه ارتكب إساءة في يومه الذي مضى فسوَّدَ وجهه ، فعليه أن يغير طريقه ويبدل سيره وأن يجعل العمل الثاني إحساناً ليبيض وجه يومه الذي هو فيه ، ويعود عليه بالمغفرة على ما مضى ، وبالحمد على ما فعله من إحسان .

وإذا بدا للإنسان وجه من وجوه الخير كان عليه أن يسرع إليه ليسرع إلى كسب الثواب والحمد ، والله سبحانه يقول : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة . . . ﴾ .

والمسارعة لاقتناص الفرصة خير لمن يريد الخير لأنه لا يدري هل يعيش

إلى غد فيفعل ، أو يمضي وهو يرفل في ثياب الإثم ويَعَضُّ بنان الندم .

ولو رجع الإنسان على نفسه بالعتاب واللوم في الأمس أو اليوم الذي أساء فيه فإن ذلك يعود عليه هو بالنفع ، إذ حقائق الأيام لا تكسب حمداً ولا ذماً بل هي آنية لمن فيها وأوعية لأهليها .

ولا حيلة للإنسان في إصلاح إساءة يصنعها في يوم من الأيام ، لأن اليوم يمضي بها معكوراً مكدوراً ، وإنما إصلاحها بعمل الخير والإحسان ، يسترها ويُغطّي عليها . أما ما مضى فلن يعود مهما كان قريباً منك ودانياً إليك .

وأبو العلاء المعري يحسن القول في هذا المعنى فيقول فيه قولاً مجرداً :

أمس الذي مرّ على قربه يعجز أهل الأرض عن رده

حق الصديق

وعن نور الأبصار من الديوان المنسوب للإمام :

إذا المرءُ لم يحفظ ثــلاثاً
فبعه ولو بكفٍّ مــن رماد

وفاءً للصديق وَبذْلَ مــال
وكتمان السرائر في الفؤادِ

وهذا الكلام واضح في بيان حقوق الصداقة ، ولكنه في تفصيله جاء بأمر مجمل وأمور تفصيلية :

أما المجمل فهو الوفاء للصديق ، ويكون بقدر ما يطيقه المرء من وفاء . وقد جاء بعد هذا الإجمال بأمرين : هما وجوب بذل المال في معونة الصديق ولا سيما عند الحاجة والاضطرار ، ثم دفع الكيد عن الصديق ، كما أوصى بكتمان سره كتماناً شديداً حتى يصان ظاهرُ الصديق وباطنه ووجهه وعِرضُه .

وعلي بن أبي طالب (ع) لم يكن صاحب سخاء في الكلام وحسب ، ولكنه كان سخيّ النفس سخيّ اليد ، حتى نزلت في تكريمه لهذا السخاء ولإيثاره الفقراء آياتٌ من الكتاب .

وتمانُعُ المال بين الأصدقاء يمحو الصداقة ويعفّي عليها ، وهو أمر أوضحه

محمد بن علي الباقر للإمام – وهو فرع هذه النبعة الزكية والشجرة المضيّة – لأصحابه فقال :

أيدخل أحدكم يده في كمّ صاحبه فيأخذ حاجته من الدراهم والدنانير ؟

قالوا : لا .

قال : فلستم إذن بإخوان .

الهداية والجنة

عن معجم الشعراء : ارتجز علي بن أبي طالب (ع) :

يـــا شاهد الله عليَّ فاشهدِ
آمنت بالخالق رب أَحمـــدِ
يا رب مـــن ضل فإني مهتدي
يا رب فاجعل في الجنان مقعدي

ولعل شاهد الله الذي يناجيه عليّ هو الإقرار بالشهادة أو لعله الله ذاته سبحانه ، والشاهد اسم من أسمائه الحسنى كالشهيد أضيف للذات ، وهو الأوْلى ، إذ به يستشهد الله على صدقه في الإيمان بخالقه وهاديه إلى خير دين جاء به أحمد رسول الله حين نبيء وبعث به .

وعليّ يستشهد الله بأنه لو مضى الناس إلى الضلالة فإنه مخالف لطرائقهم ، ماض إلى الهداية في طريق الحق ، وليس للحق إلاّ طريق واحد هو الطريق المستقيم ، أما طرق الضلال فكثيرة متشعبة ، والله سبحانه يقول : ﴿ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ .

والإمام مشتاق إلى الجنة يطلب فيها مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وكما جاء في القرآن من الثواب باختلاف الغرفات وتصاعد الدرجات .

توقع الشر

وعن معجم الشعراء أن الإمام تمثّل بشعر لعمرو بن معديكرب يقول فيه :

أُريد حياته ويريد قتلي
عذيرك من خليلك من مراد

تمثل عليّ بن أبي طالب – رضي الله عنه – بهذا البيت حين رأى عبد الرحمن بن ملجم المرادي وكان عمرو بن معديكرب قد قاله لقيس بن المكشوح المرادي .

والمعنى واضح من الشطر الأول في البيت وهو يبين كيف يختلف القصد بين المتلاقيين . أما الإمام فيريد الخير لكل الأمة ومنهم الخوارج ومن قبائلهم قبائل مراد ، ولكن عبد الرحمن بن ملجم وهو غادِرُ مراد ينوي للإمام غير ما نواه الإمام للناس .

وبتمثُّل علي ببيت عمرو يظهر أمران :

أولهما الغدر الكامن في هذه القبيلة ينتقل من غادر إلى غادر . والثاني فطنة علي (ع) لما أراده به ابن ملجم حين لقيه قبل غدرته به .

لعن الله ابن ملجم على ما فعل ، ولعن الخوارج فقد زوروا على الدين ولفقوا على اليقين ، وكانوا كما قيل :

« آمنوا باللسان والأقوال وكفروا بالقلوب والأعمال » .

قافية الرّاء

كشف الحقائق

أورد كنز العمال والقيرواني في زهر الآداب ، والطوسي في أماليه قولاً للإمام في كيفية النظر وحل المشكلات ــ والكلام مضطرب في النصوص أصلحناه بالنظر وأدخلنا بعضه في بعضه مع التورع في الاجتهاد .

قالوا :

سئل ــ رضي الله عنه ــ عن مسألة فدخل مبادراً ثم خرج في حذاء ورداء وهو يبتسم فقيل له :

يا أمير المؤمنين ، إنك كنت إذا سئلت عن مسألة تكون فيها كالسكّة المُحْمَاةِ ــ أي الحديدة المحميّة في النار ــ فقال : إني كنت حاقناً ، ولا رأي لحاقن ــ والحاقن الذي احتبس بوله ــ وقد صار هذا الكلام مثلاً .

ثم أنشأ يقول :

إذا المشكلاتُ تَصَدَّيْنَ لي
كشفتُ حقائقها بالنظرْ

وإن بَرَقَتْ في مَخيلِ الصواب
عمياءُ لا يجتليها البصرْ

مُقَنَّعة بغيــوب الأُمــور
وضعتُ عليها صحيحَ الفِكرْ

لساناً كشقشقة الأَرحبيِّ
أَو كالحسام اليماني الذَّكَرْ

وقلباً إذا استنطقتْه العقول
أَمرَّ عليها بَهيَّ الـدررْ

ولست بـإِمَّعَةٍ في الرجال
أُسائل عن ذا وذا ما الخبر ؟

ولكنَّني ذَرِبُ الأَصْغَرَيْنِ
أُبَيِّنُ معْ ما مضى ما غَبَرْ

يصف الإمام نفسه أمام المشكلات من الأفكار والأحداث فيقول : إنه يكشف ظلماتها ويبين عن حقائقها بعقله واستنباطه وتجاربه ، فلا يعطي فيها حكماً ساذجاً ولا رأياً عابراً .

ومهما كانت المشكلة عمياء صماء لا تبين للرؤية منها غير بروق خاطفة . أما هي كلها فقد غرقت في بحار الظلمات وهو يسلط عليها أضواء فكره ومصابيح تجاربه ورأيه ، فيتبدد ركامها وينصدع ظلامها .

وبيان عليّ بن أبي طالب كرأيه قوي دافق تسطع كلماته وتهزّ عظاته ، وهو إذا تكلم كان أشبه بالجمل القوي الهادر ، ثم لا ينطق إلاّ بالحق والصواب وفصل الخطاب .

والأرحبيّ هو الجمل النجيب أو الناقة النجيبة نسبة إلى فحل أو مكان منه النجائب الأرحبيات .

أما الحسام الذكر فهو الحديد الذي أُخِذَ من متين الصلب والفولاذ ، وليس ضد الأنثى ، ولكنه ضد ما يسمى بالأنيث ، وهو الحديد الزهر الذي إذا اختُبِر كان عند الاختبار هشّاً سريع الانكسار .

وقلب الإمام مثل لسانه ، لو تطلعت إليه العيون راجية أن ينقذها من الغواية وينير لها سبيل الهداية ، فإنه ينقذها ويهديها ويعرض عليها أبهى ما ترجوه من وفرة وغنى .

ولكن عليّاً — رضي الله عنه — أنذر من يريد أن يكون من أهله وأتباعه وأنصاره وشيعته فقال :

« فليستعر للفقر جلبابا » وذلك لأن طريق الحق هو الطريق الشائك لا طريق الراحة والأرائك .

وعليّ وهو من أهل المشورة والعناية بالشورى سديد الرأي بالغ الحجة قوي المضاء ، وليس بإمعة لا رأي له فيظل حائراً متردداً بين الناس يسألهم ويستغيثهم ، وهو لا يمضي لأمر إلاّ إذا أجمعوا عليه ودفعوه إليه .

ولقد كان — رضي الله عنه كما قال — جريء القلب واللسان يكشف بهما للناس مشكلاتهم الداجية وأحوالهم الماضية والآتية .

ليث الغاب

وعن مسند أحمد ومعجم الشعراء للمرزباني في قول علي يوم خيبر يرد على مرحب :

أَنا الذي سمتني أُمِّي حيدرهْ
كليث غابات كريه المنظره
أُوفيهمُ بالصاع كيل السندره

وحيدرة اسم عليّ في الجاهلية ، وهو اسم للأسد أيضاً ، ويشبه عليّ نفسه في المعارك بليث الغابة حين يغضب ويزأر ، وقد حسنت عند النقاد إضافة الليث للغابة إذا أريد الوصف بالشجاعة لأن الأسد وهو في غابته وعرينه أكثر جرأة وأعظم شجاعة من أن يُرى حبيساً محطوماً كما نراه نحن في الأقفاص في حدائقِ الحيوان .

وهذا الكلام من الرجز يرد به البطل الإسلامي على مرحب اليهودي حين ارتجز وهو يبارز في يوم خيبر نفسه فقال :

قد علمت خيبر أني مرحب
شاكي السلاح بطل مجرب

وبين ما قاله عليّ وما قاله مرحب – من غير ذهاب وراء التعصب –

فرق كبير — ، إذ جعل علي شجاعته خلقة مجبولة في طبعه وعبوس منظره ، وكَسَبَها مرحب بسلاحه وتجاربه . والأول أوْلى عند النقاد بالمدح والتفضيل . وقد زاد المسند الشطر الثالث ، والسندرة السرعة وضرب من الكيل غرّاف جَرّاف ، أو امرأة كانت تبيع القمح وتوفي الكيل .

الثوب المستعار

وعن مجاني الأدب ممّا نسب إلى ديوان الإمام قوله :

إنمـــا نعمة دنيـــا متعة
وحياة المرءِ ثوب مستعارْ
وصروف الدهر في أطباقه
حلقة فيها ارتفاع وانحدار
بينما الإنسان في عليائها
إذ هوى في هوة منها فَغار

هذه الأبيات أوْهَى نسجاً وأضعف منها في المقطعات المنسوبة للديوان ، ولكن معناها مستقيم في باب الشعر الديني الذي يفرض مثل هذا المعنى .

والأبيات تقول : إن نعم الدنيا مهما قلت أو كثرت فإنها متع قصيرة الأمد قليلة العدد ، وحتى الحياة كلها التي هي من أجلّ النعم فإنما هي ثوب مستعار لا بد أن يسترده واهبه ويخلعه موهوبه .

وهكذا يجب أن لا يغتر أحد بالدنيا أو بالنعم البارقة فيها ، إذ البرق خداع ، والدنيا مخلوقة من عوج وأمْت وارتفاع وانخفاض ، وما يكاد الإنسان يرى نفسه على إحدى قممها فإذا به — على مهل أو على فجأة — قد سقط في هوة وتحطم على منحدر .

ومن كانت هذه حاله وهذا مآله وجب عليه أن لا يغتر بالدنيا ولا يخلد إلى مباهجها ومعاليها ، فلمعانها من الاغترار وأعاليها للانحدار .

ليلة الغار

وأورد الطوسي في أماليه قال : قال عبد الله بن أبي رافع :
قال عليّ بن أبي طالب شعراً يذكر فيه مبيته على فراش النبي ، صلى الله عليه وآله وسلم ، ليلة الهجرة :

وَقيْتُ بنفسي خيرَ من وطئ الحصا
ومن طاف بالبيت العتيق وبالحِجْر

محمد لمـــا خاف أَن يمـــكروا به
فوقَّاه ربي ذو الجلال من المـــكر

وبتُّ أُراعيهم متى ينشرونني
وقد وُطِّنَتْ نفسي على القتل والأَسر

وبات رسول الله في الغار آمناً
هناك وفي حفظ الإِلٰه وفي الستر

وهذه قصة غار ثور حين خرج النبي إليه في ليلة الهجرة ومعه صاحبه أبو بكر ، فإن عليّـاً نام في فراش النبي ليوهم قريشاً أنه لم يخرج ليقي ابن عمه شر الكيد ويفديه بنفسه من الكيد والقتل .
وعليّ — رضي الله عنه — يصف رسول الله بأنه أفضل الخلق إذا قيس

بالخلق ، وأفضل العباد والطائعين إذا قيس بهؤلاء أو بهؤلاء .

ولقد بات عليّ بن أبي طالب مستيقظاً — متناوماً لا نائماً — ينتظر متى تدخل عليه قريش وتكشف عنه غطاءه ، ولكنه ما كان يدري ماذا يفعلون : أيقتلونه أم يأسرونه . . . ؟ إلاّ أنه لم يرهب ولم يتردد في تفدية رسول الله ووطن نفسه على أن يتلقى ضربة تقتله أو يداً تأسره وتحبسه .

ولم يقلق عليّ لذلك ، بل لم يحسب له حساباً ، فما دام رسول الله قد دخل الغار وأمن سطوة الكفار وحفظه الله وستر ، فأبعده عن البحث والنظر ، فإن السلامة قد أصابت كل راجف ، والأمن قد خيم على كل خائف .

الداء والدواء

وعن الكشكول للبهائي من الديوان المنسوب للإمام ــ رضي الله عنه ــ :

دواؤك فيك وما تشعر
ودَاؤُك منك وتستنكر

وتحسب أَنك جِرْمٌ صغير
وفيك انطوى العالم الأَكبر

وأَنت الكتاب المبين الذي
بأَحرفه يظهر المضمر

الإنسان ــ كما يقول الفلاسفة القدماء ــ هو العالم الأصغر الممثّل للعالم الأكبر. وقائل هذا الشعر يرى أن العالم الأكبر كله ينطوي في جِرم الإنسان الذي يظن نفسه قليلاً ضئيلاً .

وليس من كتاب من كتب هذه المخلوقات كلها يساوي حقيقة الإنسان وما خلق فيه من الشمائل والمزايا والمواهب والصفات ، ولو استدلوا على وجود الله ووحدانيته وعلمه وقدرته لما كان هناك من دليل أوضح ولا حجة أفصح من كتاب آدم الذي علمه الله الأسماء وعرفه الأشياء .

وحيث كان الإنسان كذلك فإن فيه العلة والعلاج والمرض والشفاء والظلمة والنور ، فيجب أن لا يخفى عليه داؤه أو يعجز عليه شفاؤه . وكلا ذلك منه قريب . فمتى أراد الهداية استضاء بعقله ونوره ، ومتى أراد الغواية سار في ضلاله وغروره .

أعظم الرثاء

وعن الكشكول أن عليّاً – رضي الله عنه – رثى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فقال :

كنت السوادَ لناظري
فبكى عليك الناظرُ

من شاء بعدك فليمُت
فعليك كنت أُحاذر

العين لا تنظر الألوان ولا ترى الأشكال إلاّ بسوادها ، فإذا فُقد هذا السواد فلا رؤية ولا نظر . وحين قبض النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بكت العين لا على شيء خارج عنها ، بل على أعز شيء فيها ، وهو سوادها الذي ترى فيه غيرها وتتحقق به من وجودها .

ولا قيمة للأحياء ولا لمناظر الحياة وألوانها وحدود أشكالها إذا ذهبت حدقة العين ، فإذا شمرت الأحياء للذهاب وأزمعت الحياة على الاغتراب فلا أهمية للحدقة والسواد ، مع أنه ليس أغنى للعين من حدقتها ولا أغلى من سوادها .

ولو صح أن يكون الإمام قد قال هذا الكلام فهو غاية الحزن والفقد وغاية ما ينفُضُ الطائع يده من دنيا تنقطع فيها الأنباء – أنباء السماء – ويتوارى عنها الأنبياء .

انخذال الأعداء

عن معجم الشعراء : روى يونس النحوي لعلي بن أبي طالب (ع) في عداوة قريش له :

تلكمْ قريشٌ تمناني لتقتلني
فلا وربّك ما برّوا وما ظفروا

فإن هلكتُ فرهنٌ ذمتي لهمُ
بذات وَقْبَيْن لا يعفو لها أَثر

لقد تمنت قريش حين كانت في ضلال الشرك أن تقتل عليّاً مرات ومرات : تمنته عندما كان أول من أسلم من الصبيان ، وتمنته عندما فدى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، وبات على فراشه ليلة الهجرة ليوهمهم أن النبي نائم في فراشه حتى لا يبحثوا عنه في خارج داره ، وتمنته حين فعل بها الأفاعيل في بدر وأحد وفي الغزوات كلها . . . ثم ما زالت تؤلب عليه حتى في عزة الإسلام وغرته .

وعليّ يلوم قريشاً على هذا التمني ويلومها عليه من ناحيتين :

الأولى أنه ليس تمنياً للخير ولكنه شهوة في قتل من ينصر نبياً مجتبى من السماء مبعوثاً لخيرهم وهدايتهم ، وليسودوا به العالم كله .

والثانية أنه تمنى الضعفاء الذين لا يقدرون على تحصيل الرغائب ولا نيل المطالب .

وهذا اللوم يرمي قريشاً المشركة بسيئتين :

أولاهما : سواد القلب بالحقد .

والثانية : الخور والجبن عن المقابلة والمواجهة . ولعل هذا نكتة الكلام ومقصد الاتهام .

ولكن عليّاً لا يدري ماذا تكسب نفسه غداً ، فإذا غدروا به فإن ذمته لن تسقط عنهم وديته لن تنخلع من رقابهم .

والوقب نقرة في الصخرة يجتمع فيها الماء أو شبه البئر في الصّفا تكون على قامة أو قامتين ، وتكون ذات الوقبين الصخرة التي اجتمع عليها الماء من مكانين ، أو تكون هي البئر العميقة الملأى إلى قامتين ، وماؤها لا يَفْرغ ولا ينفد .

فإذا كان المراد بذات الوقبين هذا الذي أفرغنا له جهد الفهم كان غرض هذا الشعر أنه إذا هلك صاحبه بيدهم وبغدرهم وعدوانهم، فإن دمه لن يجف وسيظل نديّاً أبداً كالماء المتجمع الذي لا ينشف والبئر التي لا تنضب ولا يغيض ماؤها .

وحيث كانوا مطالبين بذمته ودمه فأولى لهم أن يعزفوا عن أماني الشيطان ، ويطلبوا لأنفسهم الأمان بالإسلام والإيمان .

أَشباه الرجال

وعن زهر الربيع للجزائري : من ديوانه عليه السلام :

أُبُنَيَّ إنَّ من الرجال بهيمة
في صورة الرجل السميع المبصر
فطنٌ لكل رزية في مـالـه
وإذا أُصيب بدينه لم يشعر

المعنى في البيتين من المعاني التي خاض غمارها وفض أبكارها علي بن أبي طالب (ع) فهو القائل : يا أشباه الرجال ولا رجال . ثم هو القائل : رب حامل علم لا بصيرة له ينقدح الشك في قلبه لأول شبهة .

ولعله حين ينادي ابناً من أبنائه بهذا النصح يريد كل أبناء المسلمين فيحذرهم ويوعيهم ويدعوهم إلى امتحان الرجال بعد فتح الأقفال .

فرب رجل في زينة الطاووس وانتفاش الديك وهو من داخله خاوي اللب محطوم القلب ... فهو أعجم كالبهيمة التي ترتع في الطين وإن كان في صورة الأناسين.

وأشبه الناس بهذه الصورة رجل منهوم بالدنيا مكبوب الوجه على الشهوات غير مفارق للدنيّات . . . فإذا أصيب من طرف شهوته وبدنه وماله صرخ وبكى وولول واشتكى ، بل هو حريص دائماً على أن لا يصاب في دنياه وأن لا يبتلى في الرخيص من نعماه .

أما في دينه وخلقه فإنه لا يشعر بمصابه فيهما لأنه غليظ الجلد من ناحية الفضل ، رقيق الحاشية من ناحية الخسة والجهل .

وقانا الله شر هذه البلية وأبعدنا عن هذه المدنيّة ، إنه سميع مجيب .

في المبارزة

وعن العقد الفريد : كان علي – رضي الله عنه – إذا أراد المبارزة في الحرب أنشأ يقول :

أَي يوميّ من الموت أَفرّ
يوم لا يُقْدَرُ أَو يوم قُدِرْ
يـــوم يُقدَرُ لا أَرهبه
ومن المقدور لا ينجو الحَذِرْ

وهذا الكلام ممّا يقوي القلوب على الاقتحام ، وهو كالحجة لدى العقل فلا ينكره ، إذ لا خوف من الموت إذا لم يكن قد قدّره الله على المقاتل المقتحم، لأنه لا وجود له ، فلا خوف منه ، ثم لا فرار منه إذا كان قد قدره الله لأنه واقع لا محالة ، والهارب منه واقع عليه مرتطم به ، ولو كان في بروج مشيدة البنيان أو على بساط من ريح سليمان .

ولقد سجل أطباء الحروب أن المحارب لا يموت من كثرة إصاباته أو قلتها ، فقد يموت بالقلة ويعيش مع الكثرة ، بل قد يموت من غير إصابة ، بل من غير أن يكون مقاتلاً .

وهذا التسجيل يؤيد كلام عليّ – رضي الله عنه – ويجعل من تجارب العلم مؤيداً للحكمة الرشيدة التي قالها والعظة السديدة التي صاغها .

ومن ثم لا يخشى شجاع ولا جبان مواقع الضرب والطعان ، إذ المقدور نافذ ولو سدت عليه المنافذ .

عاقبة الصبر

عن الكشكول للبهائي : من الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين :

إني رأَيت وفي الأَيام تجربة
للصبر عاقبة محمودة الأَثر
لا تضجرن ولا تَدْخُلك مَعْجَزَةٌ
فالنجح يهلك بين العجز والضجر

رأى الإمام عليّ عاقبةَ الصبر محموداً أثرها ، وقد أيدته في ذلك تجارب الأيام ، فكأنه قد رأى تلك العاقبة المحمودة برأيه ، ولمسها بتجاربه وملازمته للصبر .

ولذا فهو ينصح لغيره أن لا يضجر إذا أقدم على عمل مفيد شاق ولا يحس بعجزه عن إتمام العمل فيصيبه اليأس . وقد قرر الإمام ــ رضي الله عنه ــ أن النجاح لا يصل إليه فاعل إذا أصابه الضجر وهو يعمل ، وإذا يئس من أن يصل إلى نهاية فكلا الضجر والعجز سبيلان للخسار ، وطريقان مختصران للبوار .

تكليل السيف

عن الكشكول للبهائي : لما قتل عمار بن ياسر يوم صفين احتمله أمير المؤمنين – عليه السلام – إلى خيمته وجعل يمسح الدم عن وجهه ويقول :

وما ظبيةٌ تَسبي الظبـاءَ بطرفهـا
إذا التفتت قلنا بأَجفانها سحرا

بأَحسنَ منه كلَّلَ السيف وجهه
دماً في سبيل الله حتى قضى صبرا

رأى علي بن أبي طالب (ع) في وجه عمار بن ياسر حين كلل السيف وجهه دماً يوم صفين – رأى جمالاً لم يَرَهُ المحبون الغزلون إلا في عيون الظباء إذ ترمي بهنّ لحظاً خفيفاً تسيل على خفقاته القلوب .

والظباء تسبي غير جنسها بألحاظها فإذا سبت أفراد جنسها كانت قمة الجمال فيها أعلى ، وفعل الحسن أكثر أثراً وفتنة ، وهو ما ذهب إليه الإمام في البيت الأول بقوله : وما ظبية تسبي الظباء .

ولفظ قلنا في الشطر الثاني من البيت الأول معناه رأينا وشاهدنا ، وقد وضع الإمام القول مكانه امتلاكاً لناصية اللغة وقدرة على تصريفها كما يشاء ، ولكن في سبيل البلوغ بالمعنى إلى الغاية والارتقاء بالبلاغة إلى النهاية .

ولم يكتفِ الإمام بوصف اللحظ بالجمال ، ولكنه أضاف إليه الجيد وهو ما يدل عليه لفظ « التفتت » وهذا المعنى وقع عليه شوقي في عصرنا فقال :

تلفتت ظبية الوادي فقلت لها لا اللحظ فاتكِ من ليلى ولا الجيد

وعمار بن ياسر صحابي مشهور أسلم هو وأبوه ياسر وأمه سمية وأخوه عبد الله ، وعمار أولهم إسلاماً ، أسلم في دار الأرقم ، وعذب هو وأهله في الإسلام عذاباً شديداً فصبروا ، وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يمر بهم وهم يعذبون فيقول « أبشروا آل عمار فإن موعدكم الجنة » .

وقد بشر رسول الله عماراً بقوله « تقتلك الفئة الباغية » فكان قتله وهو يحارب مع عليّ في صفين نصاً على أن معاوية بن أبي سفيان ومن معه كانوا الفئة الباغية تصديقاً لقول رسول الله ، عليه وعلى آله الصلاة والسلام .

قافية العين والفاء

أَقسام العقل

عن الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني وعجائب المخلوقات للقزويني . قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – في مراتب القوى العقلية :

رأَيت العقل عقلين :

فمطبـــوع ومصنـــوع

فـــلا ينفع مصنوع

إذا لم يك مطبوع

كما لا تنفعُ الشمس

وضوءُ العين ممنوع

والقزويني يقوم لأبيات علي – رضي الله عنه – بأن القوى العقلية أربعة مراتب : الأولان مجبولان والآخران مكتسبان .

أما الأولان فهما القوة التي يفارق الإنسان بها البهائم ، والقوة التي يدرك بها الضروريات والممكنات والممتنعات . وبهذين يكون العقل مستعداً لقبول العلوم النظرية والصناعات الفكرية ، ويدرك البداته والتصورات والتصديقات .

وأما الآخران فهما القوة التي يكون بها تحصيل العلوم من التجارب ، والقوة التي يعرف بها حقائق الأمور مباديها ومقاطعها . وبهذين تجتمع المعاني

في الذهن وتُستنبط المصالح وتُقمَع الشهوة العاجلة ويُحْتَمَل المكروه لسلامة الآجل .

والقوى العقلية درجات وهبات . ويروي القزويني حديثاً عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، في حديث طويل آخره . . . قال الله تعالى : « إني خلقت العقل من أصناف شتّى كعدد الرمل فمن الناس من أعطى حبة ومنهم من أعطى حبتين ومنهم الثلاث والأربع ، ومنهم من أعطى فَرَقاً ومنهم من أعطى أكثر من ذلك » .

وأما الأصفهاني فأورد البيتين في باب أنواع العقل وقال : العقل عقلان : غريزي وهو القوة المتهيئة لقبول العلم ووجوده في الطفل كوجود النخل في النواة والسنبلة في الحبة . ومستفاد وهو الذي تتقوى به تلك القوة .

وقال الأصفهاني : والعقل المستفاد ضربان : ضرب يحصل للإنسان حالاً فحالاً بلا اختيار منه فلا يعرف كيف حصل ومن أين حصل . وضرب باختيار منه يتعرف كيف حصل ومن أين حصل . وحصوله بعد اجتهاده في تحصيله . ثم أورد الأصفهاني بيتي الإمام استشهاداً بهما على صحة التقسيم .

أَغلى النصح

عن نور الأبصار نقلاً عن الفصول المهمة : ومن كلامه ، رضي الله عنه :

وكن معدناً للحِلْم واصفح عن الأَذى
فإِنَّك لاقٍ مـا عملت وسامعُ

وأَحبب إِذا أَحببت حبّاً مقارِباً
فإِنك لا تدري متى الحب راجع

وأَبْغِضْ إِذا أَبغضت بغضاً مُقارِباً
فإِنَّك لا تدري متى البغض رافـع

هذا الكلام يبدو وكأنه بقية لكلام سبقه ، ولكن الشبلنجي لم يذكره . . . أما هذا القول فيوحي أن يكون وزن المرء للأشياء على ميزان عدل لا يميل ولا يجور ، وأن يكون معدناً من المعادن التي تتخذ للوزن والتقدير لأنها لا تزيد بالصدإ ولا تنقص بالذوبان .

وأولى بذي النظر الصائب والحكم الصادق أن لا يهتم بغير الفصول المهمة والأمور الملمّة ، وأما الأذى فإن الصفح عنه داخل في باب العدل ، أو باب الفضل ، متى كان الشر غير مستفحل والضر لا يستحق حداً من حدود الله ، إذ العدل كائن لرد الحقوق ، والصفح كائن لإصلاح النفوس .

والأذى هو الضر اليسير الذي لا يهلك ولا يفسد وإن كان يترك أثراً زائلاً

ولوناً حائلاً ، وهو قوله تعالى : ﴿ لن يضروكم إلاّ أذى ﴾ .

وجزاء الأعمال والأقوال مكتوب واقع ، وكل إنسان رهن عمله وقوله... فإن كان محسناً رأى جزاء الإحسان ضعفاً أو أضعافاً . . . وإن كان مسيئاً ففضل الله قد كتب ألا تجزى السيئة إلاّ بمثلها .

والبيت الأول يحتاج إلى تكملة من نفس القارئ إذ كان تمامه أن يقول : فإنك لاقٍ ما عملت سامع ما قلت . . . ولكنه حذف ما يفهم بالسليقة ، وهو ما يسميه أهل البلاغة : الإضمار على شريطة التفسير وذلك حذف جملة من الكلام إذا كان فيه ما يدل عليه .

وعلي بن أبي طالب – رضي الله عنه – يوصي في الكلام بأن يكون المرء معتدلاً مقارباً في حبه وبغضه غير مفرط ولا مغال فيهما ، لأن المغالي المندفع قد يفرط في الحب فيبتعد حبيبه عنه ولا يعود فتهلك نفسه وينشق قلبه ، أو يفرط في بغضه ثم لا يجد ما يطفئه حين لا يحين له أن ينتصر على عدوه ، وإذن فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ !

عز القناعة

عن أدب الدنيا والدين : أنشدني بعض أهل الأدب وذكر أنه لعلي بن أبي طالب (ع) :

أَفادتني القناعــة كل عزٍّ
وأي غنى أعز من القناعــهْ

فصيِّرْها لنفسك رأس مال
وصَيِّر بعدها التقوى بضاعهْ

ليس بعد القناعة من عز وغنى ، ولكن ليست القناعة التي هي عن كسل . ولكن هي التي عن عمل ولا طمع وراءها في غير حق . إنما في الأجر المكافىء للعمل والكسب الآتي من حلال .

وينصح الإمام عليّ لكل مسلم ، بل لكل إنسان ، أن يجعل هذا الخُلُق رأس ماله أي الأصل الباقي . أما ما بعده فزيادة تصح فيه التجارة كالبضائع تكسب أو تخسر وتربح أو تبور ، إذ متى بقي رأس المال فصاحبه غني موفور .

خلق الجود

عن الإحياء للغزالي : قال في الآثار : قال علي بن أبي طالب (ع) : إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها فإنها لا تفنى ، وإذا أدبرت عنك فأنفق منها فإنها لا تبقى ، وأنشد :

لا تبخلنَّ بدُنيا وهي مُقبلة
فلَيْسَ يُنْقِصها التبذير والسرفُ

وإن تولت فأَحرى أَن تجود بها
فالحمدُ مِنها إِذا ما أَدبرت خَلَفُ

وقول علي – رضي الله عنه – في مقدمة البيتين ما يفسرهما ، غير ما زاده البيت الأخير ، من أن الحمد أعظم كسب إذا ربحه الإنسان من الدنيا وهي مولية ، وكأنما الحمد يُبْقي الدنيا للمرء ويديمها ، أو هو أحسن منها خلفاً وأبقى عوضاً .

قافية الكاف

غاية الشجاعة

عن نور الأبصار : عن جابر بن عبد الله ــ رضي الله عنه ــ قال : إني لحاضر عند علي بن أبي طالب (ع) في وقت إذ جاءه عبد الرحمن بن ملجم يستحمله ثم قال : أريد حياته ويريد قتلي . . . ثم قال : هذا والله قاتلي !

قال جابر : قلت : يا أمير المؤمنين ، أفلا تقتله ؟ ! قال : لا . . . فمن يقتلني ؟ ثم قال :

أشدد حيازيمك للموتِ
فإن الموت لاقيكا

ولا تجزع من الموتِ
إذا حلَّ بواديكا

والعجب أن تكون هذه عقيدة الإمام وأنه مقتول لا محالة بيد خارجي فلا ينفذ وصيته جابر . . . ولم تكن هذه الظنون التي صارت يقيناً عند الإمام إلاّ من تلويحات النبي له ، ثم من صفاء نفسه وحدة إدراكه واستشفافه لمواقع الحوادث .

ولقد تمكن الدين والعدل من نفسه فلم يسبق إلى قتل الخارجي ابن ملجم لأنه لم يكن عند عليّ إلاّ ظناً، ولم يكن الخارجي قد فعل قتلاً أو ارتكب جرماً .

وعليّ في هذا الكلام يقول لنفسه هذا القول . . . والحيازيم جمع حيزوم وهو ما استدار بالظهر والبطن أو هو ضلع الفؤاد وما اكتنف الحلقوم من

جانب الصدر ، ويريد عليّ بهذا أجزاء نفسه ومجتمع فؤاده ، يدعوها كلها إلى أن تجتمع وتحتشد لتتقي الضربة القاتلة والطعنة النجلاء .

ثم هو يدعو نفسه أن لا تجزع من الموت ، أي قبله وعند لقائه ــ لا بعده ــ لأن النفس بعد الموت تجمد فلا تجزع ولا تشتاق .

وحلول الموت بالنادي كناية عن قربه ومجالسة ومحادثة كما يحدث في النادي بين الرفيق والرفيق ، وإذا قرب الموت وجالس وحادث فقد وقع بالأجساد .

وانتظار عليّ للموت كان ــ كما قلنا ــ أمراً عجيباً وقدراً مرتقباً ، وقد قال تميم بن المغيرة :

كان عليّ ــ رضي الله عنه ــ في شهر رمضان من السنة التي قتل فيها يفطر عند الحسن ليلة وعند الحسين ليلة وعند عبد الله بن جعفر ليلة . . . ولا يزيد في الأكلة عن ثلاث لقم أو أربع ويقول : يأتيني أمر الله وأنا خميص ــ جائع ــ إنما هي ليالي قلائل ! .

فلم يمض الشهر حتى قتل ــ رضي الله عنه وأرضاه ــ .

* * *

ولهذه الأبيات قصة أخرى أوردها الإمام الغزالي في الإحياء قال : قال الأصبغ الحنظلي :

لما كانت الليلة التي أصيب فيها علي (ع) أتاه ابن التيّاح حين طلع الفجر يؤذن بالصلاة وهو مضطجع متثاقل ، فعاد الثانية وهو كذلك ، ثم عاد الثالثة فقام عليّ يمشي وهو يقول :

أُشدد حيازيمك للموت

فــإن المــوت لاقيــكا

ولا تجزع مـــن الموت

إذا حـــلّ بـــواديكا

فلما بلغ الباب الصغير شدّ عليه ابن ملجم فضربه ، فخرجت أم كلثوم ابنة عليّ – رضي الله عنه وعنها – فجعلت تقول : ما لي ولصلاة الغداة ! قَتَل زوجي أمير المؤمنين صلاةُ الغداة – تريد عمر بن الخطاب – وقَتَل أبي صلاةُ الغداة !

* * *

وعن منتخب كنز العمال : عن أبي الطفيل قال : كنت عند علي بن أبي طالب فأتاه عبد الرحمن بن ملجم فأمر له بعطائه ثم قال : ما يمنع أشقاها أن يخضبها من أعلاها ؟ يخضب هذه من هذه ، وأومأ إلى لحيته ثم قال: أشدد حيازيمك للموت . . .

وعن عبيدة قال : كان علي إذا رأى ابن ملجم قال :

أُريد حياته ويريد قتلي

عذيرك من خليلك من مراد

وهو بيت يتمثل به الإمام – رضي الله عنه – ومراد : اسم قبيلة وقد سبق بيانه .

وعن الأصبغ الحنظلي قال : لما كانت الليلة التي أصيب فيها علي أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع فتثاقل فعاد إليه الثانية وهو كذلك ثم عاد الثالثة فقام يمشي وهو يقول : شدّ حيازيمك للموت . . . فلما بلغ الباب الصغير شد عليه ابن ملجم فضربه .

الاخوة الصادقة

وعن إحياء علوم الدين وبداية الهداية لأبي حامد الغزالي قال علي–رضي الله عنه – يرتجز :

إن أَخاك الحق من كان معك
ومـــنْ يضرُّ نفسه ليَنْفَعَك
ومن إذا ريب الـــزمان صدعك
شتت فيك شملـــه ليجمعك

وقد عقد الغزالي في كتابه بداية الهداية باباً في آداب الصحبة والمعاشرة وأورد هذا الرجز لعلي (ع) .

وأولى شرح لهذين البيتين ما قدمه الغزالي لهما من وصية علقمة العطاردي في وصيته لابنه – لما حضرته الوفاة – قال :

يا بني إذا أردت صحبة إنسان فاصحب من إذا خدمته صانك ، وإن صحبته زانك ، وإن قعدت بك مؤونة مانك .

اصحب من إذا مددت يدك بخير مدها ، وإن رأى منك حسنة عدها ، وإن رأى منك سيئة سدّها .

اصحب من إذا قلتَ صدّق قولك ، وإذا حاولت أمراً أقرّك ، وإن تنازعتما في شيء آثرك .

وقول علقمة هذا لابنه أقصَرُ ما تشرح به هذه الكلمات ، وأوسط ما تسلك فيه هذه الخرزات ، وتوضّح به هذه البينات .

قافية اللام

أَخلاق الرجال

عن نور الأبصار من كلام علي – رضي الله عنه – في صفات الرجال :

أَحمدُ رَبي عــلى خصال
خصَّ بها سادةَ الرجال

لزومُ صبر وخلــع كبر
وصَوْن عرْض وبَذْل مال

يحمد الإمام ربه على أن ميز الرجال بخصائص وصفات تميزهم عن أشباه الرجال ، فتجعل الجنسَ كله سادة وعبيداً ، أما السادة فهم أولئك المتصفون بما يميزهم ويعلي مقامهم ، وأما العبيد فهم بقية الجنس كلها من أشباه الرجال .

والصفات المميزة صنفان : مكتسب وموهوب ، والمكتسب يكون بطرح الكبر ، أي بالتواضع لله وللناس ، وذلك بالإقرار لله بالنعم والعطايا ، وبمعرفة الفضل للفاضل من خلقه والكامل من عباده .

ويكون المكتسب كذلك بلزوم الصبر والتخلق به من مبادئ الأمور حتى تفضي إلى نهاياتها إفضاءً وافياً كاملاً متقناً ، وترك الجزع عند نزول المصائب وانصباب البلايا حتى تعود الأمور إلى نصابها وترجع إلى مسايرها ومجاريها .

وأما الموهوب فيكون في الغضب للعِرْض والضنّ بهوانه ، والتصدي لمن يعتدي عليه ، ثم يكون في السخاء بما في اليد وبذله ، ولا سيما إذا كان بذله في طرق المعروف وفي سبيل الله .

والضن والجود هما أمران كالضدين إذ هما مَنْح ومَنْع وعطاء وحرمان ، ولكنهما وهما ضدان هكذا لا يتعارضان ولا يختلفان ، لأن كلاً منهما له منبع من النفس يختلف عن المنبع الآخر ، كما أن لهما مصبّين بعيدين مفترقين .

وممّا ينسب إلى علي منقولاً عن نور الأبصار عن الفصول المهمة قوله – رضي الله عنه – وهو كلام مشهور :

صُنِ النفس واحملها على ما يزينها
تعِش سالماً والقول فيك جميلُ

ولا تُرِينَّ الناس إلاَّ تجَمُّلاً
نبا بكَ دهرٌ أَو جفاكَ خليل

وإنْ ضاقَ رِزقُ اليوم فاصبر إلى غد
عسى نكباتُ الدهر عنكَ تزول

وما أَكثر الإخوان حينَ تعدهم
ولكِنَّهم في النائبات قليل

وهذا كلام واضح يستغني عن التوضيح . وهو بيان مفصل لا يحتاج إلى تفصيل ، سوى أننا ننبه إلى أن البيت الأول فيه إشارة مجملة إلى جملة الصفات التي بينتها الأبيات بعد . وصيانة النفس وحملها على ما يزينها يحتاج إلى عدد لا ينتهي من الصفات والأخلاق ، وإلى جمل لا آخر لها من العظات والتنبيهات.

وهذه الأبيات أوردها الشريشي في شرحه لمقامات الحريري منسوبة إلى

الربيع بن سليمان صاحب الشافعي يقول : إنه سمع الشافعي ينشدها ، وفيها قبْل البيت الأخير :

ولا خير في ود امرئ متلوّن

إذا الريح مالت مال حيث تميل

ولعل الشافعي من كثرة حبه لها كان كثيراً ما ينشدها فرواها الربيع عنه ، وقد ذكرناها في مختارات الشافعي وديوانه من قبل .

جود الله

وعن نور الأبصار عن جابر – رضي الله عنه – قال :

دخلت على عليّ (ع) في بعض علاته وقد تغير ، فلما نظر إليّ قال لي : من كثرت نعم الله عليه كثرت حوائج الناس إليه ، فإن قام فيها بما أمره الله تعالى عرضها للدوام والبقاء ، وإن لم يعمل فيها بما أمره الله تعالى عرضها للزوال والفناء ، ثم أنشأ يقول :

مَن لم يُواس الناس من فضله
عرض لـــلإدبـــار إقبالها

فاحذَرْ زوال الفضل يا جابر
وهَبْ مِنَ الدُّنيا لمَنْ سالها

فإنَّ ذا العرف جزيلُ العطا
يُضْعف بالحبَّة أمثـــالها

بقاء النعم ودوامها رَهْنٌ بالإنفاق منها في مواساة الناس وسدّ حاجاتهم ، ومن لم ينفق ويواس فقد عرض نعمته للزوال ودنياه للذهاب والانحلال .

والإمام عليّ يوصي صاحبه جابر بن عبد الله بأن يحذر زوال النعمة وإدبار الدنيا إذا لم يهب من فضل ماله للمحتاجين والسائلين ، وينبهه إلى أن المنح والعطاء سبيل إلى مضاعفة النعم وإجزال الثواب .

والمعطي ذو العرف الجزيل العطاء هو الله ، وقد جعل ثواب الحسنة أمثالها ولم يجعله قط مثلها جوداً منه وتفضلاً ، وإنه لم يجعل المثل إلاّ جزاء السيئة فقال جل شأنه « وجزاء سيئة سيئة مثلها » .

ولكن الحسنة يجازى عنها بأضعافها وبما لا نهاية له من أمثالها ، وهو شأن المنفرد بالجود المنفرد ، والواحد الموصوف بالوحدانية في الأسماء والصفات والأفعال .

هذا ولا يخفى أننا دللنا هنا على أن القافية من اللام لا من الهاء نزولاً على التنبيه على القافية من أصحاب العروض .

ذوو الألباب

وعن الكشكول للبهائي من الديوان المنسوب للإمام – رضي الله عنه – وهو من أروع الأقوال في السياسة وحسن التدين :

يمثلُ ذو اللُّب في نفسه
مَصائبه قبلَ أنْ تَنْزلا

فإن نزلت بَغْتَة لم يُرَعْ
لما كان في نفسهِ مَثَّلا

رأى الأمر يُفْضي إلى آخر
فصيَّرَ آخره أوَّلا

وذو الجَهْل يَأمَن أيامه
وَيَنْسى مَصارِع مَن قَدْ خَلا

فإن بَدَهَتْهُ صروف الزمان
ببعضِ مَصائِبهِ أعْوَلا

هنا موازنة بين ذي اللب وذي الجهل ولقاء كل منهما للدهر وحوادثه ، فأما ذو اللب فهو يقدّر الأمور قبل حدوثها ، والكروب قبل وقوعها ، وأما

ذو الجهل فهو كالبهيمة العجماء لا ترى إلاّ أفقاً قريباً ونطاقاً ضيقاً .

هذا هو مجمل المعنى ، ولكن الروعة في تفصيل الإمام لصفات الانتباه والتقدير ، وهو يقول إن العقل يقدر للمصائب تقاديرها ومواقعها قبل أن تنزل ، ثم هو يعتقد أنها نازلة لا محالة ، حتى إذا جاءت لم يفزعه مجيئها مهما سبقت وقتها المقدر في ذهنه وأوانها الموقوت في نفسه ، وذلك لأنه هيأ لها في حسابه ووطن لها في تقديره ثم أعد لها ما يخفف من ثقلها وما يقلل من وطئها .

ويصف الإمام ذا اللب بأنه رجل يحسب للأمور حسابها ويرى نتائج القضايا من أوائلها ومقدماتها ، شأن المناطقة وأهل الحساب ، يحسون بالعواقب منذ بداياتها ، ويرون أواخر الأشياء متى رأوا أوائلها ، بالقلوب المتفطنة والعقول المستنيرة والأدلة المستحكمة .

وأما ذو الجهل وهو ضد ذاك فإنه يأمن دهره ويغتر بصفوه ، فيغفل عمّا هو من طبع الزمن ، بل يغفل عن ظاهره ، وهو يدور حوله ولا يميز سواده من بياضه ولا أوائله من أواخره ، قد فارقه منطق العقل وانطفأ في قلبه نور البديهة .

فإذا نزلت به جائحة أو ألَمَّتْ به مصيبة صرخ وأعول وبكى وولول ، وكأنه كان من الزمان على عهد وميثاق بأن لا ينزل به شيئاً من كيده ولا يطرح عليه خيوطاً من شبكة صيده .

وشتان ما بين جاهل وعاقل وعامل وخامل وحالٍ وعاطل ، وأفضل منهما جميعاً هذا المعلم القدير والواعظ الحكيم الذي ينظم القول في هذا البيان ويفصله في هذا الإحكام والإحسان .

حزن وعزاء

وعن زهر الآداب للحصري : يروي عنه (ع) أنه قال عند وفاة فاطمة الزهراء – رضي الله عنها – :

أَرَى عِلَل الدُّنيا عَليَّ كثيرة
وصاحِبُها حتى المَمات عَليل

لكلِّ اجتماع مِنْ خليلين فرقة
وإن الذي دون الممات قليل

وإن افتقادي فاطِماً بعدَ أَحمد
دليلٌ على أَن لا يدومَ خليل

يرى علي – رضي الله عنه – أن الدنيا تصب عليه عللاً كثيرة وترميه ببلايا متتابعة ، ثم يرى أنه غير مفيق منها إلاّ بعد الموت ، وبعد الموت يفوت الغرض ويمتنع المرض ، أما ما دام حياً فإنه سيظل عليلاً ، وإذا حان له يوماً أن يبرأ من علة أصابه اليوم التالي بعلة . وكلما خفت عنه مؤونة ليلة جاءته الليلة التالية بحزن طويل وهم ثقيل .

وإنه ليرى أنه لا بد من الفرقة بعد كل اجتماع ، ولا بد من الانفراد بعد كل ازدواج ، كما يرى أن مسافة الاجتماع والازدواج إنما هي وشيكة النفاد قريبة الزوال .

ولقد قبض رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وقبضت على إثره فاطمة ، وكان هو الذي بشرها بأنها أول من يموت في إثره من أهل بيته ، فلم يبقَ من بيت النبوة الآب ولا الولد ، وهذا البيت أعز على الله من كل بيت ، ومع ذلك فقد دخله الموت الذي لا بد أن يزور كل دار ، وأن يطيف بكل ساكن وجار .

ولا دليل فوق هذا الدليل على ضرورة الرحيل لكل فرد وجيل . . .

ومن هذه الركية الزاخرة بالمعاني والبيان ، فتح دلو البحتري الشاعر فقال قولته المشهورة :

أرَى عِلَلَ الأشياء شتى ولا أرَى التجمّع إلاّ عِلّة للتفرُّق

حسبة العمر

وعن الكشكول للبهائي من الديوان المنسوب للإمام :

إذا عاشَ الفتى ستِّين عاماً
فنصف العمرِ تمحقه اللَّيالي

ونِصْفُ النصف يذهَبُ ليسَ يَدْري
لغَفْلَته يَميناً مِنْ شمال

وثُلث النصف آمالٌ وحرص
وشُغْل بالمكاسبِ والعيال

وباقي العمر أَسقام وشيب
وهمّ بارتحال وانْتقال

فحُبُّ المرءِ طول العمر جهل
وقسمته على هذا المثال

إنها حسبة لأبي حسن وهو أشهر فقهاء الصحابة في الحساب والمسائل حتى إنهم قالوا للمسألة التي لا تحل : قضية ولا أبا حسن لها .

وهو في هذا الشعر يضرب مثلاً لمن يعيش ستين عاماً ، فإنه يحسبها ستين

سنة حية كاملة نابضة ولكنها في الحقيقة ثلاثون لا غير لأن نصفها ليالي نائمة وأزمنة مظلمة ، وذلك إذا كان يقضي كل نهار من الثلاثين حياً عاملاً نابضاً .

ونصف النصف العامل من الأيام البيضاء يذهب في غفلات ويضيع مع الرياح لا يدري المرء كيف ضاع ولا أين راح .

وثلث ذلك الربع العامل جزء يضيع من غير عمل ، يضيع في الآمال والأخيلة والرسوم والحرص على الحياة والبحث عن أسباب العيش .

فجملة هذه نصف وربع وثلث الربع فلم يبق من النصف الحيّ إلاّ ثلاثة أرباع الربع ، وهي جزء ضئيل باق للمرء ينفقه في أمراضه وأسقامه وشيبه وهمومه وارتحاله وانتقاله .

وحسب المرء من بلوى حياته أن تقسم كذلك – وهي لا بد مقسومة كذلك – فخير له أن ينزل عن حب الدنيا وعن تمني طول الأجل لئلاّ تطول شكواه وتستمر بلواه .

العمل المصاحب

عن أدب الدنيا والدين : روي عن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – أنه قال بعد وفاة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

غَرَّ جهولاً أَمَلُهْ
يموتُ مَن جا أَجلُهْ

ومَنْ دنا مِن حَتفه
لم تُغْن عنه حِيَلُهْ

وما بقاء آخِرٍ
قد غاب عنهُ أَوَّله

والمرءُ لا يصحبُه
في القبر إلا عملُهْ

الموت نهاية كل حيّ غير وجه الله فإنه لا يبقى إلاّ هو، ومن لم يعلم ذلك ويعمل له فهو جهول مغرور بالأمل الكاذب والبرق الخادع ، وحين يجيء الأجل ويحين الحَيْن لا تنفع حيلة ولا تنجي منه وسيلة .

والبيت الثالث فيه حكمة ودقة فهو يقول إن الأمور والأعمار لها مدى تسير فيه من الأول إلى الآخر وكلما مضى أول نسي ولم يبقَ ، وهكذا دائماً

أبداً كلما قطع الأمر أو العمر مدّى مات هذا المدى ، وإذا كان الأمر والعمر كذلك فكيف يبقى الآخر وكل أول له قد مات .

وربما كان هذا البيت تعبيراً عن الحادث الذي هو محدود بأول وآخر وكلاهما ينتهيان عند الأولية والآخرية .

وهكذا كل حي يموت إلاّ الأعمال التي يقدمها الأحياء ، فهي هي الباقية ، أي جزاؤها ، وإذا مات المرء تخلى عنه كل مرافق ومصاحب ، ولم يمض معه إلاّ ما قدّم من عمل ، فهو الذي يبقى معه ليلقى به جزاءه فإما إلى جنة وإما إلى نار .

شكر النعمة

عن أدب الدنيا والدين : أنشدني بعض الأدباء ما ذكر أنه لعلي بن أبي طالب (ع) :

من جاور النعمة بالشُّكر لم
يَخْشَ على النعمة مغتالها

لو شكروا النعمة زادتهمو
مَقالة الله التي قالها

لئِنْ شكَرْتُمْ لأَزيدنَّكُم
لكِنّما كفرهُمُو غالها

والكفرُ بالنعْمَةِ يدْعُو إلى
زوالها والشُّكرُ أبقى لها

التضمين في البيت الثالث تضمين رائع كما يرى القارئ وقد قابل عليّ (ع) في هذه الأبيات بين بقاء النعمة وزيادتها بالشكر كما قال الله سبحانه وقدر وبين زوالها بكفرها والبطر عليها .

والأبيات كلها حث على أن يشكر الناس ما أنعم الله عليهم به . ولما كانت نعمه لا تعد ولا تحصى ، فقد وجب أن يكون شكر الله دائماً والثناء عليه ملازماً .

قافية الميم

امتداح شهيد

وعن أسد الغابة أنه نسب إلى عليّ بن أبي طالب أنه قال يثني على الحارث ابن الصمة الذي قاتل حتى قتل يوم أُحد ــ فيما يقال ــ ولم يقتل حتى أشرع إليه الأعداء الرماح فنظموه بها :

يا ربّ ابن الحارثِ بن الصِّمَّهْ
أَهــل وفاء صادق وذمَّه
أَقبلَ في مهامه مُلِمَّهْ
في ليلَةٍ ظَلْمــاء مدلهِمَّهْ
يسوق بالنبي هادي الأُمَّهْ
يلتمس الجنَّة فيها ثمهْ

ينادي عليّ ربه ــ سبحانه ــ أن يقبل الحارث لأنه أهل للوفاء وصدق الذمة إذ أقسم لا يترك قتال الأعداء يوم أُحد ، وقد كان يوماً ذا مهامه ألمّت كروبها بالمسلمين وليلة أظلمت وادلهمّت أركانها عليهم .

وربما كان الحارث أحد الحداة للرجال يسوق نياق رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إلى الموقعة ، وإذا كان الناس قد راحوا إلى القتال يلتمسون الغنائم فإن الحارث لم يذهب إلاّ لالتماس الجنة وطلبها .

وقد ثبت الحارث مع رسول الله يوم أُحد وقَتَل عثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخذ سلبه ، فأعطاه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، السلب، ولم يعط السلب يومئذ غيره ، وبايع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، على الموت .

يوم صفين

عن العقد الفريد وزهر الآداب وكتاب العمدة وقد اقتصر الأخير على إيراد البيتين الأولين — وقد اخترنا مقدمة العقد وأبيات الزهر — قال ابن عبد ربه : كان شعراء النبي ، صلى الله عليه وسلم ، حسان بن ثابت وكعب ابن مالك وعبد الله بن رواحة . وقال سعيد بن المسيب : كان أبو بكر شاعراً وعمر شاعراً وعليّ أشعر الثلاثة . ومن قول علي (ع) بصفين روى الحصري قوله :

لمن راية سَوْداء يخفق ظلها
إذا قيل قدِّمها حُضَين تقدما

فيوردها في الصف حتى تردّها
حياض المنايا تقطر الموت والدما

جزَى الله قوماً قاتلوا في لقائهم
لدى الروع قوماً ما أعز وأكرما

وأَطيب أَخباراً وأَفضل شيمة
إذا كان أَصوات الرجال تغمغما

حضين الذي يذكره علي في هذه الأبيات هو أبو ساسان الحضين —بالضاد—

ابن المنذر بن الحارث الرقاشي ، وكان صاحب راية علي يوم صفين .

وقد كانت الراية سوداء، وقد اقتبس عليّ هذا اللون من رايات النبي التي كانت تتقدم القوم عند نية الحرب ، وأول راية سوداء اتخذها النبي ، صلى الله عليه وسلم ، كان في سرية عبد الله بن جحش ، وهي السرية التي هاجت الناس إلى غزوة بدر .

وعليّ يمدح حامل رايته هذه بأنه مخلص مطيع ،يتقدم الصفوف إذا أمر أن يتقدم، ثم لا يرتد ولا يتقهقر حتى ترده وترد رايته حياض المنايا وهي تقطر : إما موتاً زؤاماً أو جراحاً دامية لا يستطاع معها التقدم إلى الأمام ولا الاستمرار في القتال .

وعليّ لا يمدح الحضين باسمه إلاّ وهو دليل قومه وإشارة عليهم، فهم يقاتلون مع حامل رايتهم قتالاً مريراً ، وقد لقوا قوماً آخرين أقوياء أشداء فحمي الوطيس وطارت الرقاب .

وما كان أعز قوم حضين عند اللقاء وأكرمهم وأطيب أخبارهم في البطولة والاقتحام والاستشهاد ، ولم يكن أعلى من أصواتهم وأشد حين تخفت أصوات الرجال وتصير مغمغمة لا تكاد تعلو ولا تسمع ، وإذا لم يكن الحين هو الذي يخفتها فإن الموت يدفنها ويخمدها .

مدح همدان

عن العمدة لابن رشيق القيرواني : ومن شعر عليّ بن ابي طالب – رضي الله عنه – وكان مُجَوَّداً – ما قاله يوم صفين يذكر همدان ونصرهم إياه :

ولما رأَيت الخيل تُرْجَمُ بالقنا
نواصيُّها حُمْرُ النحور دوامي

وأَعرض نقــعٌ في السماءِ كأَنه
عجاجــة دَجْنٍ مُلْبَسٍ بقَتام

ونادى ابن هند في الكلاع وحمير
وكندة في لخم وحيٍّ جُــذام

تيممتُ همدان الذين همُ همُ
إِذا ناب دهر جُنَّتي وسهامي

فجاوبني من خيل همدان عصبة
فوارسُ من همدان غيرُ لئام

فخاضوا لظاها واستطاروا شرارها
وكانوا لدى الهيجا كشَرْبِ مُــدامِ

فلو كنت بواباً على باب جنة

لقلت لهمدان : ادخلوا بسلام

كلام الإمام كله رائع وأروعه ما كان في الحماسة لأنه طبعه الذي ينفث منه وخلقه الذي يستمليه ، وهذه القطعة أليق بكلامه وأنسب بمقامه ، وقد مدح فيها قبائل همدان حين استنهضها فنهضت وخاضت الوغى مستخفة بها كأنها شَرْبُ مُدام .

والأبيات الثلاثة الأولى تصف جوّ الوقعة وخصومه فيها إذ كانت السماء قاتمة اللون قد استعرض فيها غمام أسود يظلم منه الجو ، وقد نادى معاوية حينئذ قبائله من كلاع وحمير وكندة ولخم وجذام ، ثم أخذت تقذف بالرماح في صدور خيل عليّ ونحورها ، وكأنها بدأت هي بالقتال فلم يجد عليّ إلاّ أن يدفع القتال بقتال .

وحينئذ نادى عليّ قبائل همدان وقد كانت ظل عليّ وسهامه ، وما كاد يناديها حتّى أقبلت عصبة من فوارسها لا تعرف التأخر ولا الالتواء ولا الفرار وخاضت من فورها نار الحرب ، كأنهم يرتجلون الضرب ارتجالاً قد تعودوه وأحبوه ، لا يبذلون فيه جهداً ولا يلقون تعباً ، كما يتعود الشّرْب مائدة الشراب ويألفونها لعباً وارتياحاً .

وقوله — رضي الله عنه — في البيت السادس « واستطاروا شرارها » يحتمل معنيين : أن يكون استطاروا بمعنى أطاروا ونشروا . وأن يكون بمعنى أنهم هم كانوا شرارها فاستطاروا في كل جهة من ميدان القتال .

والبيت الأخير وعد لهمدان بدخول الجنة ولكنه وعد حذر متلطف فليس بنبي يوحى إليه وليس بملك موكل بالباب ولذلك بدأ الكلام بقوله (لو) حذراً منه وتلطفاً . ثم إنه نكّر لفظ الجنة لتكون همدان في مرتبة الخلد التي تستحقها دون أن يعرفها هو . والله أعلم .

طلب الثواب

وعن معجم الشعراء في رواية لسعيد بن المسيب سيد التابعين قال : قال عليّ (ع) :

أَفاطم هاك السيف غير ذميم
فلست برعديـــد ولا بلئيم

لعمريَ قد جاهدت في نصر أَحمد
ومـــرضاة ربّ بالعباد عليم

أُريد ثواب الله لا شيء غيره
ورضوانـــه في جنة ونعيم

وإنه خطاب لفاطمةِ الزهراء البتول بنت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، وهو لا يفخر عندها ولا يمتن على أحد بهذا الفخر ، وإنما يذاكرها به وبسيفه الذي جرده لنصرة النبي ومرضاة الله رجاء ثوابه وجنة خلده .

ويصف عليّ نفسه بموضع عدل ، فهو لا يهاب فيخاف ويفر ، ولا يجرؤ ويتهور فيقتحم ويغدر ، بل في موضع الشجاعة يضع سيفه ، ولا موضع للشجاعة أوسط من موضعها في نصرة الدين وطلب اليقين .

بنو أَسلم

وعن الإصابة لابن حجر : قال عليّ يمدح بني أسلم الذين حاربوا معه في صفين :

جزى اللهُ خيرا عصبة أَسلمية
حسان الوجوه صُرِّعوا حول هاشم

بريد وعبد الله منهم ومنقذ
وعروة وابنا مالك في الأَكارم

وكأنما كان الإمام العظيم يسجل أسماء أصحابه في سجل الشرف حيث حاربوا معه لنصرة الحق ورد الفئة الباغية في صفين ، وهم لم يبالوا أن يموتوا دون بني هاشم وتحت راياتهم .

والبيت الثاني يسجل أسماء خمسة منهم وفيهم الإشارة إلى غيرهم من بني عمومتهم من بني أسلم جميعاً ، وبنو أسلم بطون من القحطانية والعدنانية . ولعل عليّاً – رضي الله عنه – يريدهم جميعاً أو من حاربوا معه منهم .

هذا ، ولو لم تضع الأشعار الكثيرة التي قالها عليّ في هذا الباب لكانت سجلاً حافلاً ، ولكنها إن ضاعت منها الأسماء والأنباء فقد بقيت في ذمة الحق والدين حقائق الأشياء ومناعم الجزاء .

شكر الله

وعن نور الأبصار قال : قال عليّ (ع) :

إذا كنتَ في نعمة فارعها
فإن المعاصي تزيل النعم

وداوم عليها بشكر الإله
فإن الإلٰه سريع النقم

وقبل هذين البيتين أورد الشبلنجي بيتين مضطربين فتركناهما لهذين الآخرين المشهورين .

والبيت الأول مأخوذ من قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا بنعمة ربك فحدث﴾ والحديث بالنعمة يكون برعايتها والانكفاف عمّا يزيلها ، وهو أولى المراد بشكر الله عليها .

وشكر الله على نعمه جدير أن يتّصف من العبد بالدوام ، حتّى على النعمة الواحدة أو الموصوفة جهلاً بالقليلة ، فإن المرء لا يقدر النعم قدرها ، ولا يزنها بمقاديرها .

ومن لم يشكر الله على نعمته فهو قمين بأن يزيلها عنه ويحرمه منها ، وعقاب الله شديد ، وأشده حرمان العبد من نعمته وإصابة مكانها بنقمته ، نعوذ بالله من زوال النعم عياذاً ، ونلوذ إليه لياذاً .

عجز الإدراك

عن مجاني الأدب : قال الإمام عليّ (ع) :

كيفية المرء ليس المرء يدركها
فكيف كيفية الجبار بالقِدَمِ
هو الذي أَنشأَ الأَشياء مبْتدعاً
فكيف يدركه مستَحْدَثُ النَسم

يحتار المرء في إدراك غيره ، بل هو أكثر حيرة وأعظم دهشة في إدراك نفسه ، ولكنه قد يصل أحياناً كثيرة إلى العلم بأكثر ما يبحث عنه أو بأقله ، غير أنه يعجز — لا محالة — عن إدراكه كله والإحاطة به .

وإذا كانت هذه قضية مسلَّماً بها ، وذات الإنسان أمام عينيه وبين جنبيه وتحت خاطره وفهمه، فكيف يتطاول ليدرك ذات الله القديمة ويقيسها بالأعداد والأشكال والكيفيات ، والله سبحانه يقول : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ فيبتعد إدراكها بذلك الوصف عن كل إدراك ! .

والحجة في ذلك أن الله تعالى متصف بالقِدم ثم هو الذي أنشأ الأشياء على غير مثال والأنسام على غير قياس فهي متصفة بالحدوث ، فكيف للمخلوق الحادث أن يدرك الخالق القديم ؟ والقديم متصف بالوجود المطلق وكان الحادث معدوماً ، والخالق واجب الوجود وهذا المخلوق كان وسيظل موهوم الوجود .

مجتمع الخصوم

وعن مجاني الأدب : روي أن عليّاً كتب إلى معاوية بهذه الأبيات :

أَما والله إن الظلم شُوم
ولا زال المسيء هو الظَّلوم

إلى ديان يوم الدين نمضي
وعندَ اللهِ تجتمع الخصوم

ستعلم في الحساب إذا التقينا
غداً عند المليك من الملوم

ستنقطع اللذاذة عن أُناس
من الدنيا وتنقطع الهموم

لأَمر مَّا تصرّفت الليالي
لأَمر ما تحركت النجوم

سل الأَيام عن أُمم تقضت
ستخبرك المعالم والرسوم

تروم الخلد في دار المنايا

فكم قد رامَ مثلك ما تروم

تنام ولم تنم عنك الرزايا

تنَبَّهْ للمنيَّةِ يا نؤوم

لهوت عن الفناءِ وأَنت تفنى

فما شيءٌ من الدنيا يدوم

ليس من المحقق أن هذا الكلام لأمير الكلام عليّ، ولكنّا نسوقه في مساق الشعر الديني للعظة والاعتبار حيث يحمل معاني من الزهد هي أليق بهذا الباب من الكلام . وفي قول الرواة إنه منسوب إلى عليّ دليل على أنهم لم يحققوه ولم يقطعوا بأنه له .

والكلام بعد ذلك يصف الظلم بأنه شؤم على صاحبه وأن الظلوم هو فاعل هذه الإساءة ، فلا يحسبن أنه ناج من العقوبة فإنه ــ لا محالة ــ ماض هو وخصمه إلى مجتمع الخصماء يوم القيامة بين يدي الله وهو وحده ديان ذلك اليوم وقاضيه .

ومن واجب كل إنسان أن يرى الدنيا من حوله فيتعظ بسيرتها وينظر إلى بدايتها ونهايتها ، وهي تخبره بأنه لا دوام لدار ولا ساكن ، ولا قرار لدابة ولا ظاعن .

والمنايا في كل زمان ومكان فاغرة أفواهها لابتلاع ، صارخة وراء كل حيّ للسفر والإيضاع ، وهي لا تنام عن نائم ، ولا تغمض عن قاعد ولا قائم .

ومثل هذا الكلام مهما كان وعظاً فإنه أدنى ممّا ينسب إلى عليّ ولا سيما إذا كتب به إلى معاوية فإنه كان أسد بيداء في وجه من شرد وعصى ، وسيفاً يبتر ويقضم لكل حديدة وعصا .

عفة المطعم

وعن المستطرف للأبشيهي : قال الإمام عليّ – رضي الله عنه – :

توقَّ مدى الأَيـــام إدخال مطعم
على مطعم من قبل هضم المطاعم

وكلّ طعام يُعْجِزُ السنَّ مضغُــه
فــلا تقرَبنْه فهــو شرٌّ لطاعم

ووفر على الجسم الدماء فإنها
لقوة جسم المرءِ خير الدعائم

وهذا من أغلى نصح الإمام عليّ (ع) فهو طبيب نطاسي يوصي بأن لا يُدخل آكلٌ طعاماً على طعام من قبل أن تخلو المعدة من السابق حتّى يدخل عليها اللاحق .

كما يوصي رضي الله عنه بتخير الأطعمة ، وأن تكون الأسنان طريق اختيارها ومكان اختبارها ، فإذا سهلت عليها كسراً ومضغاً ازدردها ، وإذا صعبت لفظها ، فإن ما وراء الأسنان من المعدة والأمعاء ليس أقوى منها ، ومن الظلم أن يدفع القوي ما يصعب عليه إلى الضعيف ليليّنه ويعمل فيه ما لم يستطعه .

وكذلك يوصي هذا الطبيب أن يوفر المرء صفو دمه لقوة بدنه التي يصرفها في النفع والعبادة ، ولا يضيعه فيما لا فائدة فيه ولا عائدة منه .

وليس يخص الإمام الطبيب النصيحة ، بالطعام ، بل بكل شهوة وكل مطمع ، ولكنه قدم الكلام في الطعام ليكون دليلاً على غيره ومقدمة لسواه ، ولأن البطن أول جائع وأكبر جاشع .

تمام الأُمور

عن مجاني الأدب والكشكول من الديوان المنسوب قوله :

حلاوة دُنياك مسمومة
فما تأكل الشهد إلاَّ بِسُمّ

فكن موسراً شئت أَو معسراً
فما تقطع الدهر إلا بهَمّ

إِذا تمَّ أَمر بدا نقصه
ترقب زوالاً إِذا قيل تم

وهذه الأبيات معروفة مألوفة ، وفيها أن صفو الدنيا لا يُخْلَص من أكدارها ، وحلوها لا يكون نقياً من مرِّها ، ومهما تصور الإنسان أنه آمن سعيد ففي طيِّ الأمن قلق ، وفي ثنايا السعادة شقاء .

وليس في الدنيا سعادة خالصة ولا نعيم صفو ، ثم لا قياس بالغنى والفقر واليسر والعدم ، وإنما السعادة الكبرى بالخلاص من الهموم والنجاة من الغموم ، وهذا في الدنيا خيال وضرب من المحال .

وقد يغتّر بعض الناس فيحسبون حين يظنون لو بلغوا قمة أنهم حصلوا على كمال السعادة وتمام الصفاء ، ولكن هذا الكلام نذير النقص وهذا التمام مقدمة الزوال وكما قال الشاعر الأندلسي :

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان

قافية النون

الصبر الجميل

وعن الكشكول للبهائي من الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ :

هوِّن الأَمر تعش في راحة
قلَّ ما هونتَ إلا ويهونْ

ليس أَمر المرءِ سهلاً كله
إنما الأَمر سهول وحزون

تطلب الراحة في دار الفنا
خاب من يطلب شيئاً لا يكون

ينصح الإمام لكل من لا يجرب الزمان أن لا يكسره خطب أو يقتله حزن، بل عليه أن يهوّن الأمور النازلة والخطوب الحادثة ، فإذا ليّنها المرء كذلك هانت عليه واستطاع حمل آلامها والخلاص من آثارها .

ولا يظن الحياة رخية سهلة كلها رفق وصفاء إلاّ من لم يجرب الأمور ويعرف الحياة ، أما طبيعة الأمور في هذه الحياة فهي مداولة بين السهل والصعب ومعاقبة بين الفرح والحزن ومبادلة بين اللذات والآلام .

والدنيا هي دار هذه الأضداد وموطن هذه المفارقات ، بل هي أميل للشر

وأعطف على الأذى ، ولذلك سميت دار العناء والشقاء ، فإذا طلب المرء منها شيئاً ليس من طبعها كان كمن يقول فيه الشاعر :

ومكلف الأيّام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

طلب الرزق

وعن منهاج العابدين لأبي حامد الغزالي قال علي (ع) :

أَتطلبُ رزق اللهِ من عند غيره
وتصبِحُ من خوف العواقب آمنا
وترضى بصراف وإن كان مشركاً
ضميناً ولا ترضى بربك ضامنا
كأَنك لم تقرأْ بما في كتابه
فأَصبحت منحول اليقين مباينا

والغزالي يقول في تقديم هذه الأبيات : إن الله قد ضمن الرزق لعباده في كتابه ، فقد ضمن رزقك وتكفل لك به فما تقول لو وعدك أحد أغنياء الدنيا أن يضيفك الليلة وأنت حسن الظن به أنه لا يخلف وعده ؟ بل لو وعدك بذلك سوقيّ أو مجوسيّ مستور عندك بظاهره عفيف في مقالته ؟ ألست تثق به وبوعده وتطمئن بقوله وتتكل عليه ؟

فما بالك وقد وعدك الله تعالى وضمن لك رزقك وتكفل به ، بل أقسم عليه في غير موضع وأنت لا تطمئن بوعده ولا تسكن إلى قوله وضمانه ولا تنظر إلى قسمه ، بل يضطرب قلبك ويهتم . فيا لها من فضيحة لو رأيت وبالها ، ويا لها من مصيبة لو علمت حالها !

ألا يجر هذا الحال إلى الشك والشبهة ويخاف على صاحبه — والعياذ بالله — سلب المعرفة والدين ؟ والله سبحانه يقول : ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ ويقول : ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ .

ألسنة المفترين

عن زهر الربيع للجزائري : قال الشاعر وينسب إلى مولانا أمير المؤمنين – عليه السلام – :

قد قيل إن الإلٰه ذو ولدٍ
وقيل إن الرَّسول قد كَهَنا
ما نجا الله والرَّسول معاً
من لسان الورى فكيف أنا

وهذا تصوير لافتراء المفترين على الله والرسول ، فهم يصفون الله بالحاجة إلى الفروع التي يبقى فيها ككل المخلوقات ، ثم يرمون الرسول ظلماً بأنه قد اتبع سبيل الكهان في حياته وكلامه .

وهكذا لم ينج الله ولا الرسول من أهل الافتراء فكيف بمن هم من خلق الله ومن هم دون رسوله من أبناء آدم كعلي بن أبي طالب أو من هم أقل منه درجات وصنوف تبلغ المئين والألوف والقبائل والأمم .

وقد يُغتفر للمفتري ما يكذب به على الخلق وما يصفهم به من صنوف النقص ، أما ما يكذب به على الله وعلى رسوله فلا صفح عنه ولا غفران ، لأنه جهل بلا علم ، وتطاول بلا أدب ولا فهم .

رجاء وابتهال

وعن مجاني الأدب : قال الإمام :

إلـهـي لا تُعَذِّبـني فإني
مقرٌّ بالذي قـد كان مني

فما لي حيلـة إلاَّ رجائي
بعفوكَ إنْ عفوتَ وحسن ظني

فـكم من زلَّة لي في الخطايا
عضضتُ أناملي وقرعتُ سني

يظنُّ النَّاس بي خيراً وإني
لشرُّ الخلق إن لم تعفُ عني

وهذا دعاء وابتهال يرجو فيه العابد أن ينجيه الله ممّا استحقه من العذاب ، وهو يتقدم بين يدي ربه بإقراره واعترافه ، فلعل في الإقرار والاعتراف توبة من الذنب وقبولاً للعذر من غفار الذنوب .

وليس للمذنب من حيلة يمحو بها ذنبه فقد وقع منه الذنب ولم يعد لمحوه سبيل ، وإنما الحيلة في الرجاء من الله أن يعفو وفي حسن الظن به لأنه كريم .

وإن الزلات التي ارتكبها والخطايا التي دنا منها جعلته حيران ذاهلاً يعض

بنانه ويقرع سنه تأسفاً وندماً . وحسب هذا الندم أن يكون توبة ورجوعاً .

والناس من حوله لا يعلمون بذهوله الذي أصابه وحيرته التي غرق فيها بما فعل من ذنوب وارتكب من خطايا ، بل إنهم ليظنون فيه الصلاح ويعتقدون فيه الاستقامة ، ولكنه في الحقيقة غير ما يظنون وغير ما يشاهدون ، وإنه لشر الخلق جميعاً إذا لم يعف عنه العفو الغفور ويرحمه الرحمن الرحيم !

غربة الجسم

وفي رسالة كشف الكربة لابن رجب الحنبلي أنه ينسب للإمام (ع) قوله :

جسمي معي غير أَنَّ الروح عندكمُ
فالجسمُ في غربـــة والروح في وطن

وهذا أشبه بقول المتصوفة بانحطاط البدن إلى الأرض وارتفاع الروح إلى عالم الملكوت. وأخصّ أهل الغربة الغرارون بدينهم من الفتن وهم النزّاع من الناس إلى الاغتراب بأرواحهم عن مزاحم أهل الدنيا وشهوات النفوس .

تعزية وتوعّد

عن حلية الأولياء للحافظ أبي نعيم الأصبهاني، حينما أصاب سفهاء قريش عثمان بن مظعون في عينه بلطمها لما خرج عثمان من جوار الوليد بن المغيرة إلى جوار الله والاحتماء به، قال عليّ بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ :

أَمن تذكُّر دهرٍ غير مأمونِ
أَصبحت مُكتئباً تبـكي كمحزون

أَمن تذَكُّر أَقـوام ذوي سفهٍ
يَغْشون بالظلم من يدعو إلى الدين

لا يَنْتهون عن الفحشاءِ ما سلموا
والغدر فيهم سبيل غير مـأمون

أَلا ترونَ ـ أَقلَّ الله خيرهم ـ
أَنَّا غضبنا لعثمان بن مظعون

إِذ يلطمون ـ ولا يخشون ـ مقلته
طعناً دراكاً وضرباً ضرب مأفون

فسوف يجزيهم ـإِن لم يمُتْـ عجِلاً
كيلاً بكيل جزاء غير مغبون

كان عثمان بن مظعون قد أسلم فلجأ من الأذى والبلاء إلى جوار الوليد ابن المغيرة المشرك القرشي فأجاره وحماه ، فلما رأى عثمان أنه مجار محميّ وأصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يعذبون بأنواع البلاء طلب إلى الوليد أن يردّ عليه جواره علانية في المسجد كما كان قد طلبه علانية ، فرد الوليد جواره ونزل عثمان في جوار الله لا يستجير بغيره .

وثارت عليه سفهاء قريش فلطمه واحد منهم لطمة أصابت عينه فاخضرّت فلم يحزن عثمان وتمنى لو أصاب عينه الأخرى في سبيل الله مثلما أصاب عينه الأولى.

ولما بلغ علي بن أبي طالب ذلك قال ذلك الشعر يعزيه ويتوعد قريشاً ، فيقول : إن المرء ليصبح مكتئباً باكياً محزوناً من تصرفات الدهر لأن الدهر يسلط سفهاءه على الداعين إلى الله فيغشونهم بالظلم والجور .

ومهما نهوا عن الفحشاء فإنهم لا ينتهون اغتراراً بسلامتهم ونوم الدهر عنهم ، فيغدرون ويخونون حتى تصبح لهم الخيانة عادة والغدر طبعاً .

ويدعو عليّ أو يخبر أن هذه بلية من الله لهم إذ أقلّ خيرهم ومنعه ، وليس المراد بأقل هنا أنه أفعل تفضيل فيكون لهم خير قليل بل المراد أنه لا خير لهم أبداً ، وهو أسلوب العرب في الكلام ونهجهم في الخطاب .

ويهددهم عليّ بأن المسلمين وأصحاب النبي غضبوا لابن مظعون، حين انهال المشركون عليه يلطمون وجهه لطمة في إثر لطمة وضربة في إثر ضربة، كفعل المأفون الذي فقد عقله ورشده حتى أصابوا عينه ، ولو كان فيهم بعض العقل والرشد لآذوه واتقوا أن يصيبوه في حاسة البصر التي هي أغلى الحواس .

ولئن كانوا قد فعلوا به ما يريدونه من الشر وجاوزوه فسوف يأتي الوقت الذي يجازيهم فيه بمثل ما فعلوا من غير غبن ولا إفحاش ، لأنه طبع المسلمين في القصاص . وذلك إن لم يمت قبل أن يقتص فإذا مات فإن القصاص سيأتي لا محالة بيد الله على أيدي عباده من أصحاب رسول الله .

قافية الهاء

دار السكنى

عن الكشكول من الديوان :

النفس تبكي على الدنيا وما علمت
أَن السلامة فيها ترك ما فيها

لا دار للمرءِ بعد الموت يسكنها
إلاَّ التي كان قبل الموت بانيها

كما يبني المرء يسكن ، فإذا بنى داراً حسنة وقصراً مشيداً عاش مجدوداً سعيداً ، وإذا بنى داراً ضيقة وكوخاً حقيراً عاش في ظل ما بنى فقيراً منكوراً .

وخليق بمن يريد أن يبني له داراً أحسن وقصراً أدوم أن لا يفكر في ذلك البناء الذي هو بالحجر والآجرّ والحديد والطلاء، فإن هذا كله لا يبني إلاّ أضيق الدور وأدنى القصور ، وأما البناء الواسع الخالد فلا يكون إلاّ بالعمل الواسع الخالد .

ولن يجد المرء من دار تلقاه بعد موته إلاّ ما بنى ، فإن كان من آجر وطين انهار على رأسه ، وإن كان ما بناه من عمل نافع وطاعة دائمة وجد أمامه الغرف والدور التي تزري بالحدائق والقصور .

أو يقال :

للمرء نفسان : نفس حيوانية بها تقوم الحياة على الغذاء والشهوة ، ونفس إنسانية وهي القوى المفكرة الملكية ، والأولى هي التي تبكي على الدنيا عند

فراقها وتتمسك بأذيالها لتقضي منها أخس أوطارها ، والثانية هي التي تعلم هوان ما في الدنيا ، وتدرك أن السلامة في ترك شهواتها وطرح لذائذها .

وبالنفس الثانية يُقبل الإنسان على الطاعات وأعمال الخير ويبني منها جدران داره الباقية ونعيمه الذي لا يفنى . والحق الذي لا مرية فيه أن المرء ليس له دار يسكنها أبداً ويعيش فيها خالداً إلاّ دار الأعمال التي يبنيها في حياته الدنيا ليكون مسكنه في الحياة الأخرى .

ومهما بنى الإنسان في الدنيا من دور فإنه بناء من الكذب والزور ، ولا علو ولا استقرار إلاّ في دار القرار .

خلق الحلم

وعن الكشكول يصف الإمام نفسه بالحلم ويفصل صفات الحليم :

أَصَمُّ عن الـكلم المُحْفِظات
وأَحلُمُ والحلمُ لـهُ أَشبَهُ

وإِني لأَترك جُـلَّ المقـال
لـكيلا أُجابَ بما أَكره

إِذا ما اجتررت سفاه السفيه
عـلَيَّ فـإِني إِذن أَسْفَهُ

فـلا تغترر بـرُواءِ الرِّجال
وإِن زخرفوا لك أَو مَوَّهـوا

فكم من فتى يعجب الناظرين
لـه أَلسن ولـه أَوجـه

ينام إِذا حضر المكرماتِ
وعنـد الدنـاءة يستنبه

يقول الإمام : إنه يصم سمعه عن الكلم الذي يحفظ نفسه ويسوء خاطره وكأنه لم يسمعه ، وذلك تغاضياً عن الوقوع في الشر وغضاً من شأن قائله ، وهو يفعل ذلك لئلاّ يصدر عنه ما يسوء ويشين .

وليس ذلك السكوت والغضّ عن خوف أو ضعف ، ولكنه حلم الكريم وهو الخلق الشبيه به والنسيب إليه .

حتّى لو اضطرته الحادثات إلى أن لا يسكت وحفزته على الاضطرار للكلام فإنه لا يقول كل ما يجول في خاطره ولا يستوعب ، وقديماً قالوا : إن الكريم لا يستوعب . وذلك حتّى لا يعود عليه المقال الطويل بردّ يؤلم وإجابة تسوء .

وهو قبل كل ذلك لا يخاطب سفيهاً ولا ينجرّ إلى حديث معه حتّى لا يجرّه إلى السفاهة ، وإنه يعتقد أن من يخالط السفهاء ويبادلهم الآراء والأقوال فإنه يكون أسفه منهم وأعمق في الخطإ من قراراتهم وأعماقهم .

وينصح الإمام بأن لا يغتر أحد بما يزخرفه الرجال من سيماهم ومظاهرهم وأقوالهم ، وليكن المرء حريصاً خبيراً بالنفوس فلا تخدعه الزخارف ولا تغره التماويه .

ومن تجارب الحياة أنها طالما كشفت عن الحقائق ، فبان فتيان كثيرون من تحت المنظر المعجب رجال سوء وفتيان لؤم ، إنهم منافقون يتكلمون بكل لسان ويتوجهون بكل وجه .

وإنما تظهر حقائق الرجال بالاختبار والامتحان ، فهم يتأخرون إذا دُعُوا للمكارم ويتقدمون إذا لاحت لهم الدناءات ، كالجبناء في دروع الشجعان تتقدم ألسنتهم وتتأخر قلوبهم ــ كما قال زيد بن علي بن الحسين ــ رحمه الله .

صفة الصديق

عن إحياء علوم الدين وبداية الهداية لأبي حامد الغزالي قول عليّ – رضي الله عنه – ومجاني الأدب يدل على اختيار الصديق – والكلام مختلف وقد اخترنا نصّ أبي حامد – :

فلا تصحب أخا الجهل
وإيـــاك وإيـــاه

فكم من جاهـــل أوْدى
حليماً حين آخاه

يقاس المـــرء بالمرء
إذا ما المرء ماشاه

كحذْوِ النعل بـــالنعل
إذا ما النعل حاذاه

وللشيء من الشيء
مقاييس وأشباه

وللقلـب عـــلى القلـب
دليل حين يلقاه

والبيت الرابع لم يروه في إحياء علوم الدين .

ويقول أبو حامد : وأما الأصدقاء فلا تؤاخ إلاّ من يصلح للأخوة والصداقة ، وقد قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « المرء على دين خليله فلينظر من يخالل » .

فإذا طلبت رفيقاً ليكون شريكك وصاحبك في أمر دينك ودنياك فراع فيه خمس خصال :

الأولى : العقل فلا خير في صحبة الأحمق .

والثانية : حسن الخلق فلا تصحب من لا يملك نفسه عند الغضب والشهوة .

والثالثة : الصلاح فلا تصحب فاسقاً مصراً على المعصية .

والرابعة : الزهد فإن الحرص على الدنيا سم قاتل ، والطبع يسرق من الطبع .

والخامسة : الصدق فلا تصحب كذاباً فإنك منه على غرور .

وبعد ذلك فإن كلام عليّ أشبه من هذا الكلام وبيانه أحلى من هذا البيان ، إذ هو يحذر من صحبة الجاهل ويؤكد التحذير ، ويبين سببه في أن كثيراً من الجهال صاحبوا الحلماء وأردوهم وأزالوهم عن العقول والحلوم .

وحتى لو كان هذا عاقلاً وهذا جاهلاً ، فإن الناس سيقيسون العاقل بالجاهل إذ هو مسرع إلى الخطإ متهافت على السقوط ، ولن تقاس النعل إلاّ بالنعل حين تحاذيها في أسفل القدم .

وكيف يُحكم على امرئ بأنه عاقل وهو يصاحب جاهلاً ، أو يقال إن قلبه مستنير وهو لا يميل إلاّ إلى الظلمة والانكدار ، وإنما تقاس الأشباه وتتقارب الأشكال !

العنصر الطيب

وعن الكشكول من الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين ــ عليه السلام ــ :

من لم يكن عنصرُه طيّباً
لمْ يخرج الطيّب من فيه
كلُّ امرئ يشبهه فعلُه
ويَنضَح الــكوز بما فيه

المرء تابع لطينته موافق لشاكلته ، فإن كان من طينة خصبة وشاكلة طيبة أصدر عن خصوبة وأذاع عن طيب ، وإن كان من طينة مجدبة ، وشاكلة خبيثة كان جديباً خبيثاً .

ولا يتصور أن تنبت الأرض الخصبة غير زرع نامٍ وثمر لذيذ ، أما ضدها فلا يخرج زرعاً ولا يعطي ثمراً ، ويكاد أصل المرء يعرف من قوله وينضح على لسانه .

وكل امرىء يدل فعله على أصله وقوله على نجاره ، كالكوز إن امتلأ شراباً منعشاً أنعش النفوس ، وإن امتلأ سماً لم يسق إلاّ هلاكاً وموتاً .

جملة المكارم

عن أدب الدنيا والدين : أنشدني بعض أهل الأدب وذكر أنها لعلي بن أبي طالب – رضي الله عنه – :

إِن المــكارم أَخلاقٌ مطهرةٌ
فالعقل أَولها والدين ثانيها

والعلمُ ثالثها والحلمُ رابِعُها
والجود خامسها والعُرْف ساديها

والبر سابعها والصبر ثامنها
والشكرُ تاسعها واللِّين عاشيها

والنفس تعلم أَني لا أُصدقها
ولست أَرشُدُ إِلاَّ حين أَعصيها

والعين تعلمُ مِن عينَيْ محدثها
إِن كان مِن حزبها أَو من أَعاديها

عيناك قد دَلَّتا عينيَّ منك عــلى
أَشياء لولاهما ما كنت تبديها

المكارم العشرة المعدودة ليست منظومة بالترتيب إذ الدين يجب أن يكون أولها ، ولكنها مجموع خصال البر والمكارم التي يجب أن يتخلق بها السيد الكريم من الناس .

واكتساب هذه المكارم العشرة يكون بالاحتراس من النفس وميولها وشهواتها ، ومن أراد أن يصون مكارمه كان قاسياً على نفسه شديد الحساب لها .

والله سبحانه مشكور لأنه جعل عيون المنظور إليهم تنم عمّا في نفوسهم وعيون الناظرين تعلم هذا المكنون ، ولولا معرفة العيون الناظرة لأسرار العيون المرئية لاشتبه الصديق بالعدو وخفي المحبوب والمكروه .

قافية الياء

رثاء خير البرية

عن أنساب الأشراف للبلاذري : قال علي بن أبي طالب (ع) شعراً يرثي فيه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وقال البلاذري : كتبنا منه أبياتاً وهي :

أَلا طرقَ الناعي بليل فراعني
وأَرّقــني لمــا استقل مناديا

فقلت له لما رأَيت الذي أَتــى
لغير رسول الله إِن كنت ناعيا

فواللهِ لا أَنساك أَحمد ما مشت
بي العيس أَو جاوزت في الأَرض واديا

وكنت متى أَهبط من الأَرض تلعة
أَرى أَثراً منه جديداً وعافيا

جواد تشظَّى الخيل عنه كأَنما
يرينْ به ليثاً عليهن ضاريــا

ليبك رسول الله خيلٌ كثيرة
تثير غباراً كالضبابــة عاليا

وهذه المرثية وسط مراث أوردها البلاذري لأبي بكر وعمر وحسان وصفية بنت عبد المطلب – رضي الله عنهم – وفيها يذكر سماعه للنعي ليلاً بكلمة الطروق ثم أكد بكلمة الليل ، وذكر ما أصابه من الأرق والارتياع ، ولقد تمنى أن لا يكون هذا النعي لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بل لغيره أياً كان من البشر فقد كان يهون .

ويقسم عليّ أنه لن ينسى رسول الله في سفر ولا إقامة وفي سير ولا ركوب، وكيف ينساه وقد ترك رسول الله له في كل مكان أثراً من دعوة ومن هداية ورشد ، يبقى القديم من كل أثر كما هو لا يمحي ويجدّ منه كل يوم أثر جديد .

ووصف عليّ (ع) شجاعة النبي في سلمه وحربه في جوده وغضبه ، وشبهه بالجواد الذي إذا رأته الجياد تفرقت عنه رعباً وفرقاً كما تتفرق الشظايا من حجر يتكسر ويتفتت ، وكأنما الجياد لا تراه جواداً مثلها ، وإنما تراه ليثاً ضارياً .

ومن حق هذه الجياد التي انتسب إليها هذا الجواد أن تبكيه ، وليكن بكاء الناس عليه مالثاً لجوار الدنيا ساداً أنفاسها كما تثير الخيل الكثيرة العادية غباراً كثيراً فتجعله كالضباب الذي يحجز الرؤية ويسدّ الأنفاس .

عفة الإمام

وعن معجم الشعراء للمرزباني أن عليّاً (ع) تمثل عند قسمته لما كان في بيت المال ببيت لعمرو بن عدي، وهو قوله:

هـذا جَنـايَ وخيـاره فيـه
إذ كل جانٍ يده إلى فيه

وأصله أن عمرو بن عدي اللخمي نزل مع موالي خاله جذيمة الأبرش يجنون الكمأة فجعل الخدم والموالي يأكلون خيار ما يجنون ويدفعون إلى جذيمة رذالته.

وأما عمرو فجعل يدفع إلى خاله ما يجنيه على حاله ولا يأكل منه شيئاً، ويقول هذا البيت يعلن به عفته وعلوّ مروءته.

وعليّ — رضي الله عنه — أولى من يتمثل بهذا الكلام لأنه يقسم كل ما في بيت المال ولا يأكل منه شيئاً، وبون بعيد بين ما في الكمأة وما في بيت المال من مال.

والكمأة ثمرة أرضية برية تكون مدفونة في الأرض أشبه بثمرة البطاطس تكثر في البادية وأرض الشام، ويقولون إن حباتها تكبر وتنضج في السنة المرعدة، فإذا خمدت في سنة من السنين أصوات الرعد — مهما كان مطرها — لم تكبر بل لم تظهر.

وقد تحققت ذلك عند سكناي ببلاد الشام وحلب أكثر من عشر سنين، ولله في خلقه شؤون.

فضل القناعة

وعن الكشكول في فضل القناعة للإمام :

إذا أظمأتك أكف اللئام
كفتكَ القناعة شِبْعاً وريًّا

فكن رجلاً رجله في الثرى
وهامة همَّته في الثريا

يقول الإمام : إن اللئام من طباعهم أن يحرموا من يسألهم ويمنعوا من يلجأ إليهم ، ولا حيلة لمن أصابه القدر بلئيم إلاّ أن يلجأ إلى الصبر والقناعة ، وحين ذلك يجد من هذين الخلقين ما يشبعه ويرويه .

ولا يفعل ذلك إلاّ أولو العزم ، وماذا يمنع المرء أن يكون منهم ، بل عليه أن يجدّ ويسعى حتى ينال ما يطلبه بجده وسعيه فلا يحتاج إلى لئيم ولا يلجأ إلى خسيس .

عجباً للزمان

وعن الكشكول من الشعر المنسوب للديوان :

عَجَباً للزمــان في حالتيه

وبــلاء وقعت منه إليه

ربَّ يــوم بكيتُ فيه فلما

صرت في غيره بكيت عليه

هذا شعر مشهور وقد نسب إلى كثيرين ، ومهما يكن لعلي أو لغيره فإن المخترع المفيد لا ضرورة لأن يعرف صاحبه أو يبحث عن كاشفه .

ومعناه أن الزمان ماضٍ وآتٍ وسرور وآهات ، وربما مرّت على الإنسان منه أيام رآها مظلمة وأحوال ظنها قاتمة وتمنى عندها لو أنه كان قد مات ولم يرها أو لم يولد حتى يراها .

وهي – مع هذا التهويل – أخف حملاً ممّا سيجيء وأقل ظلمة ممّا سيكون ، وما أهونها إذا مرت وأسرع نسيانها إذا فاتت . والليالي حبالى يلدن كل عجيبة .

وهذان البيتان قد اتخذهما الناس مثلاً يضربونه تحسراً على أيامهم الخوالي ولياليهم المواضي كلما رأوا خطباً حاضراً ونحساً شاهداً ، وكأنما أولاد آدم في هذا المثل سواء يستخفون دائماً ما فات ويستثقلون دائماً ما هو حاضر وما هو آتٍ .

وعن الكشكول قال الإمام يصف هيئة يد الوليد عند إهلاله ويده عند موته :

وفي قبض كف الطفل عند وِلادِهِ
دليلٌ على الحرص المركب في الحيّ

وفي بسطها عند الممات مواعظ
ألا فانظروني قد خرجت بلا شيّ

هذان البيتان ينسبان لعلي وغيره ، وقد صورا حال المرء حين يولد وحين يموت ، فإنه يولد قابضاً كفه دليلاً على طبيعته في الحرص والبخل وكأنه خرج يقبض على رزقه ويضم أصابعه على عمره .

ثم هو عند الموت يبسط كفه وكأنما طرح منها كل ما كان فيها ورمى كل ما كان قابضاً عليه .

وفي هذا وذاك عظة ، إذ كل مقبوض ينفق وكل محروص عليه يضيع ، ولن يأخذ الإنسان معه ممّا جمع شيئاً ، ولكنه يأخذ ثمرات الأقوال وصالحات الأعمال .

البعث والسؤال

عن أدب الدنيا والدين : أنشد بعض أهل الأدب ما ذكر أنه لعلي ــ رضي الله عنه ــ :

فلوْ كنَّا إذا متنا تُرِكْنا
لكان الموت راحة كلّ حيٍّ

ولــكنا إذا متنا بُعثْنــا
ونُسأَلَ كلنا عن كل شيٍّ

يكره كل إنسان أن يموت حتى أولئك الذين لا يؤمنون بالبعث لأن الموت تحطيم للأبدان ومفارقة للأرواح . ولكن الإمام يرى أن الموت لو كان النهاية التي ليس بعدها إفاقة ولا بعث ولا حساب لكانت فيه راحة لكل الأحياء فلا يحاسبون ولا يسألون إذ كلهم محاسب مسؤول .

ولكن بعد الموت بعث وسؤال ، والكل فيه سواء ، والمسؤولية عن كل أمر صغير أو كبير ، ولا يفرّ من هذا الحساب هارب ، والله سبحانه يقول : ﴿ وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ .

ولذا وجب الاهتمام بالموت لما بعده من الثواب والعقاب على ما قدم المرء من حسن أو سوء ، ووقانا الله السوء .

الفهرست

الوصي الشاعر ٥

قافية الهمزة

الناس سواء ١١
الشدة والرخاء ١٤

قافية الباء

معاداة الرجال ١٩
الجهل والحلم ٢٠
واعظ المشيب ٢١
اكتساب المجد ٢٣
السفه والصواب ٢٤
الاغترار بالدنيا ٢٧
الفرج القريب ٢٩
الأمر بالتعلُّم ٣٠

قافية التاء

فضيلة الصمت ٣٣
وحدانية الله ٣٥

مسافة الدهر ٣٧
عظة غالية ٣٩

قافية الجيم والحاء

العسر واليسر ٤٣
الصلاة والتسبيح ٤٥
كتمان السرّ ٤٧

قافية الدال

برق المعالي ٥١
فوائد الأسفار ٥٣
غاية البعد ٥٥
إعمار المساجد ٥٧
معاودة الإحسان ٥٩
حق الصديق ٦١
الهداية والجنة ٦٣
توقع الشر ٦٤

قافية الراء

كشف الحقائق ٦٧
ليث الغاب ٧٠
الثوب المستعار ٧٢
ليلة الغار ٧٣

الداء والدواء ٧٥
أعظم الرثاء ٧٦
انخذال الأعداء ٧٧
أشباه الرجال ٧٩
في المبارزة ٨٠
عاقبة الصبر ٨١
تكليل السيف ٨٢

قافية العين والفاء

أقسام العقل ٨٧
أغلى النصح ٨٩
عز القناعة ٩١
خلق الجود ٩٢

قافية الكاف

غاية الشجاعة ٩٥
الأخوة الصادقة ٩٨

قافية اللام

أخلاق الرجال ١٠١
نصائح وعظات ١٠٣
جود الله ١٠٥
ذوو الألباب ١٠٧

حزن وعزاء ١٠٩
حسبة العمر ١١١
العمل المصاحب ١١٣
شكر النعمة ١١٥

قافية الميم

امتداح شهيد ١١٩
يوم صفين ١٢٠
مدح همدان ١٢٢
طلب الثواب ١٢٤
بنو أسلم ١٢٥
شكر الله ١٢٦
عجز الإدراك ١٢٧
مجتمع الخصوم ١٢٨
عفة المطعم ١٣٠
تمام الأمور ١٣٢

قافية النون

الصبر الجميل ١٣٥
طلب الرزق ١٣٧
ألسنة المفترين ١٣٨
رجاء وابتهال ١٣٩
غربة الجسم ١٤١

تعزية وتوعّد ١٤٢

قافية الهاء

دار السكنى ١٤٧
خلق الحلم ١٤٩
صفة الصديق ١٥١
العنصر الطيب ١٥٣
جملة المكارم ١٥٤

قافية الياء

رثاء خير البرية ١٥٩
عفة الإمام ١٦١
فضل القناعة ١٦٢
عجباً للزمان ١٦٣
البداية والنهاية ١٦٤
البعث والسؤال ١٦٥

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم ع ١٧٩٧
التاريخ ٢٨/٣/٢٠٠٦